
مكتبة نوبل
١٩٠٧
راديارد كيبلينغ
مختارات من
حكايات بسيطة
من الجبال
Telegram:@mbooks90
ترجمة: توفيق الأسدي
٢٧٠٥٣٨٩٠٨٢

إلى أذكى وأظرف امرأة في الهند

أهدي هذا الكتاب

• (راديارد كيبلينغ)

(نشر هذا الكتاب لأول مرة عام 1888 وكان كيبلينغ في الثالثة والعشرين من العمر)



نبذة من سيرة راديارد كيبلينغ

من لا يعرف من العرب الشاعر والقاص والكاتب البريطاني راديارد كيبلينغ، يعرف مقولته الشهيرة: «الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا أبدا». هذا الحسم الأيديولوجي من جانب صاحب «كتاب الأدغال»، جعلته في نظر الكثيرين الناطق الثقافي باسم النزعة الإمبراطورية (الاستعمارية) البريطانية، وبسبب مواقفه المستمدة من هذه المقولة أطلق عليه جورج أورويل لقب «نبي الإمبراطورية»، وإن كان قد أبدى احترامه الشديد له في وقت لاحق بسبب موهبته الأدبية التي لا تضاهى..

كيبلينغ هذا، وبهذا الوصف تحديداً، يعود حالياً -عودة الابن غير الضال- ليتصدر الاهتمام الأكاديمي البريطاني، وكأنه يخضع لاكتشاف جديد. فالنزعة الممتدة إلى خارج حدود الجزيرة الإنجليزية، وما تواجهها من تحديات تجعل من المتحمسين لها يبحثون عن مبرر ثقافي يسوّغ لهم توجهاتهم، أو أيقونة يرصعون بها مراميهم التي أصيبت بالضمور خلال العقود الماضية ولعل الصدفة وحدها، هي التي جعلت كيبلينغ قبل عامين يعود إلى صدارة الاهتمام، فمن دون سابق تصميم عثر الباحث الأميركي توماس بيني على نحو 50 قصيدة لراديارد كيبلينغ في محفوظات عائلته أثناء أعمال الترميم في أحد منازله في مانهاتن، وقد تم كتابة بعض هذه القصائد خلال الحرب العالمية الأولى والتي خسر كيبلينغ بسببها ابنه..

يستحق كيبلينغ هذا الاهتمام وأكثر، إذ يكفي أن هنري جيمس، مثلا، وصفه بأنه «واحد من أكثر العبقريات كمالاً»، لكن كيبلينغ الجديد، العائد بغزارة إلى صفحات الصحف البريطانية، وملاحقها الثقافية،

وكذلك إلى الدوائر الأكاديمية، يعود بمشروعه الأيديولوجي وليس بمنجزه الأدبي؛ فصحيفة مرموقة مثل «الإندبندنت»، على سبيل المثال، تخصه بشكل شبه دوري بإضاءات متميزة غير مسبوقة، تبين العوامل الكثيرة التي صنعت عبقريته الأدبية... أين؟ في الهند، المستعمرة البريطانية السابقة التي ولد فيها عام 1856، ونشأ في مدينتها بومباي ومنها انطلقت مسيرته المهنية.

ففي بحث جديد أعدته المحاضرة في جامعة لندن سارة لونسديل، ونشرته في موقع «المحادثة» الجامعي ونقلته «الإندبندنت» سلطت الأضواء على العناصر التي جعلت من كيبلينغ «حكواتياً» قديرا، مستفيداً من مسيرة مهنية بدأها في عمر مبكر في مسقط رأسه الهندي، من هذه المهنة اكتشف قدرته على المراقبة والقص، واستخدام المنهج التجريبي في الكتابة، وضخه بجرعات عالية من الخيال.

فقد عاد كيبلينغ ذو الستة عشر عاما من طفولة ومراهقة بائسة في بريطانيا إلى الهند، إلا أنه كان يتمتع بموهبة رفيعة جعلته يمثل وخلال وقت قصير نصف هيئة التحرير في الصحف التي عمل بها في لاهور، بحسب ما كتبه في مذكراته «شيء من نفسي».

وفي حين تستند شهرة كيبلينغ على كتبه الرائجة مثل «كتاب الأدغال» و«مجرد قصص»، إلا أنه كتب مئات آلاف الكلمات في تقاريره الصحفية قبل أن يستيقظ خياله الخفي، حسبما قال.. وقد ساعدته مهنته الصحافية على وجه التحديد في إجادة الاختصار والتكثيف، فالمساحات المحدودة على صفحات الجريدة كانت تقتضي منه أن يجعل لكل كلمة يكتبها، وزنها ومذاقها وإذا لزم الأمر رائحتها.

بهذا المعنى تقول الباحثة لونسديل، بأن أسلوب كيبلينغ بات ينطوي على طبقات من المعنى، بحيث تصبح قصة واحدة من قصصه القصيرة

أكثر إيحاء من كتاب يخطه مؤلف آخر.

وبعد فترة وجيزة من تكليفه بأول مهمة له كمراسل لصحيفته، بدأت تظهر قصصه القصيرة التي كان من شأنها أن منحته كل تلك الشهرة. وبين العامين 1884–1885، أظهرت أعمال كيبلينغ ليس ما تحتضنه ذاكرته من الطفولة فحسب بل ما يختزنه خياله من رؤى.

والعديد من المضامين والمفاهيم في قصصه القصيرة، ابتداء من الأصل الحكائي إلى البناء السردي وصولا إلى الرؤى والمقاصد، قد ظهرت أولا في أعماله الصحفية. في تلك المرحلة، بدأ كيبلينغ يفرج عن مواقفه الانتقادية الشديدة للبلد الذي ولد ونشأ فيه «الهند»، وكانت تلك انتقادات تمظهرت بمضامين عنصرية، حتى ولو أنها ذهبت في مناحٍ اجتماعية، مثل آرائه التي أدانت مظاهر الكسل والفساد وانعدام النظافة، ولم يخفف من ذلك ما عبر عنه عموماً عن حب وتقدير ذلك البلد الشاسع، وخصوصا لما يثيره في نفسه من دهشة وغموض.

الدهشة والغموض، كانتا دائما تعويذة الغربيين في النظر إلى الشرق، و كيبلينغ واحد منهم.

ظهرت أعمال كيبلينغ الصحفية أخيراً في مجلد يضم المئات منها حرره توماس بيني، لكن المئات منها ما تزال مجهولة، أو لم يتم إعادة نشرها.

كانت واحدة من المهام الأولى التي كلف بها كيبلينغ أن يقدم تقريراً عن زيارة الوالي لمهراجا باتيالا، نحو 200 ميل من لاهور، في آذار (مارس) 1884.. يومها كان كيبلينغ ما يزال في سن المراهقة، وبكلماته التقط المراسل الشاب براعة العرض المبهر: «الفيلة المرصعة بالفضة وزخارف من الذهب.. تتأرجح جيئة وذهاباً مثل السفن الراسية،

ضوء الشمس ينعكس على الحلي الذهبية والأقراط المرصعة حتى ليبدو وكأن قارعة الطريق تشتعل بكنوز ألف ليلة وليلة، والفيلة نفسها تشرق مثل يراعات ممجدة».

هذه اللغة البليغة لصحافي شاب، تمثل المرجعية اللغوية التي نهل منها نصه المبهر عن «رقصة الفيل» في «كتاب الأدغال».

وبحسب التدقيق الذي أجرته الباحثة سارة لونسديل في مقالات كيبلينغ الصحفية، التي كتبها ونشرها في الهند، فإن الشرق الذي اعتبر في مقولته الشهيرة أنه «سيبقى شرقاً ولن يلتقي أبداً مع الغرب»، كان بالنسبة إليه مجرد حافز خيالي يستمد من أساطيره السحر والغموض، وهو الموضوع الذي ساد كل كتابات الغربيين سواء كانوا مستشرقين أو مجرد مستلهمين، قبل أن يزيحها بطبيعة الحال موضوع أخرى هو موضوع «الإرهاب».

كان كيبلينغ عاشقاً للأسفار إذ جاب مختلف الأصقاع في آسيا وأوروبا وأمريكا وأفريقيا، غير أن الهند حظيت بحصة كبيرة من أعماله ومنها رائعته «كتاب الأدغال» التي تعد واحدة من كلاسيكيات أدب الأطفال العالمي.

حاز كيبلينغ عام 1907 على جائزة نوبل للآداب ليكون أول إنكليزي يحصل عليها وأصغر من يمنح هذه الجائزة، كما رشح عدة مرات لنيل لقب الفارس وشاعر البلاط غير أنه اعتذر عن قبولهما.

واصل كيبلينغ الكتابة حتى أوائل الثلاثينات وتوفي عام 1936 عن سبعين عاماً.

لراديارد كيبلينغ العديد من القصائد، مثل: «قصيدة مندالي» 1890 و«قصيدة جانجا دين» 1890.

مات كيبلينغ في 18 كانون الثاني (يناير) 1936، وكان عمره 70 سنة، أحرق جثمانه في محرقة غولدريس غرين، ودفن رماد جثته في «ركن الشعراء».

من الطرائف في حياة كيبلينغ أن إحدى المجلات نشرت نعيه قبل يومين من وفاته فما كان منه الا أن كتب اليها قائلا: لقد سمعت للتو بأنني ميت، لا تنسوا إلغاء اشتراكي في مجلتكم.

١- ليسبث

انظر، قد نبذتم الحب! ما هذه الآلهة التي تريدون مني أن أرضيها؟

الثلاثة في واحد، الواحد في ثلاثة! ليس الأمر هكذا! سأذهب إلى آلهتي.

ربما ستمنحني راحة أكبر من مسيحكم البارد وثالوثكم المعقد.

•(المهتدية)

كانت هي ابنة «سونو»، وهو رجل جبلي من الهيمالايا، و«جاديه» زوجته. في إحدى السنين، قضى القحط على محصول الذرة في حقلهم، وأنفق دبّان إحدى الليالي في حقلهم الوحيد المزروع بالخشخاش والأفيون الواقع فوق «وادي سوتلج» على جانب «كوتغار». وهكذا فإنهما اهتديا إلى المسيحية في الفصل التالي من العام، وجلبا ابنتهما الطفلة إلى مركز الإرسالية ليتم تعميدهما. وقد عمّدها قسيس كوتغار باسم «إليزابيث»، إلا أنها عُرفت باسم «ليسبث» كما لفظه أهل الجبل الناطقين بلغة «الباهاري».

في وقت لاحق، حلّت الكوليرا في «وادي كوتغار» وحملت معها حين رحلت سونو وجاديه، وأضحت ليسبث نصف خادمة ونصف رفيقة لزوجة من كان قسيس كوتغار آنذاك. وقد حدث هذا بعد فترة حكم الإرساليات المورافية في ذلك المكان، إنما قبل أن تنسى كوتغار تماماً اسمها الذي كان «سيدة الجبال الشمالية».

ولا أعرف إن كانت المسيحية قد أضفت تحسينات على ليسبث، أو أن آلهة قومها قد حققت لها ذلك وضمن أي ظروف. إلا أنها كبرت لتصبح جميلة جداً. وحين تصبح فتاة جبلية جميلة، فهي تستحق أن

يسافر المرء مسافة خمسين ميلاً فوق أرض وعرة ليراها. كان لليسبث وجه إغريقي الملامح... واحد من تلك الوجوه التي غالباً ما رسمها البشر ونادراً ما رأوها. كان لون بشرتها فاتحاً وعاجياً، وبالمقارنة مع بنات عرقها، فقد كانت طويلة القامة جداً. كما كانت لها عينان رائعتان؛ ولولا إلباسها تلك الملابس المخيطة من قماش مطبوع والتي كانت الإرساليات مولعة بها، كنت ستظنها، لو قابلتها فجأة على جانب الجبل، ديانا الرومان(1) الأصلية وقد خرجت لتمارس الذبح.

مالت ليسبث إلى المسيحية بسرور، ولم تتخلَّ عنها حين وصلت إلى السن الذي يؤهلها لتصبح امرأة، كما هو شأن بعض فتيات الجبل. كان بني قومها يكرهونها لأنها -كما قالوا- أضحت امرأة بيضاء وراحت تغتسل كل يوم. أما زوجة القسيس فلم تكن تعرف كيف تتصرف معها. لا يمكن للمرء أن يسأل إلهة جليلة يبلغ طول قامتها مائة وسبعة وسبعين سنتيمتراً وهي ترتدي حذاءها، أن تجلي الأطباق والصحون. كانت تلعب مع أطفال القسيس وتحضر الدروس في مدرسة يوم الأحد، وتقرأ كل الكتب التي في المنزل، وراحت تكتسب جمالاً فوق جمال كل يوم، كما هو شأن الأميرات في حكايات الجن. قالت زوجة القسيس إن على الفتاة أن تعمل في «سيملا» كممرضة أو تمارس عملاً «أنيقاً» ما. ولكن ليسبث لم تكن راغبة في العمل. كانت سعيدة جداً في حياتها الحالية.

حين كان مسافرون يأتون إلى كوتغار -ولم يكن هناك الكثير منهم في تلك السنين- اعتادت ليسبث أن تؤوي إلى غرفتها وتقفل الباب خشية أن يصطحبها هؤلاء إلى سيملا، أو إلى مكان ما في العالم الخارجي.

في أحد الأيام، بعد أشهر قليلة من بلوغها سن السابعة عشرة،

خرجت ليسبث لتتمشى. لم تكن تتمشى بأسلوب السيدات الإنكليزيات... أي أن تسير مسافة ميل ونصف لتعود وهي تركب في عربة. كانت تمشي لمسافة تبلغ عشرين بل وثلاثين ميلاً في تريضها هذا، وذلك ما بين كوتغار وناركوندا. في هذه المرة عادت عندما كان الغسق في أوجه، وقد راحت تهبط المنحدر الخطر نحو كوتغار وهي تحمل شيئاً ثقيلاً بين ذراعيها. كانت زوجة القسيس في حالة إغفاء خفيفة في غرفة الجلوس حين دخلت ليسبث وهي تلهث وفي حالة من الإرهاق الشديد من ثقل حملها. وضعت ليسبث حملها فوق الأريكة، وقالت ببساطة: «هذا زوجي. لقد وجدته على (طريق باغي). لقد آذى نفسه. سوف نعتني به، وحين يشفى سيقوم زوجك بتزويجه مني».

كانت هذه أول مرة تذكر فيها ليسبث وجهة نظرها في الزواج، وأطلقت زوجة القسيس صرخة رعب. وعلى أي حال، كان الرجل الممدد على الأريكة في حاجة إلى من يعتني به أولاً. كان شاباً إنكليزياً، وكان يعاني من جرح بليغ في رأسه تسبب به شيء حاد. قالت ليسبث إنها وجدته على جانب الجبل فأحضرته. كان يتنفس على نحو غير مألوف وقد فقد وعيه.

وضع في السرير وقام القسيس بالعناية به حيث أنه كان يلمّ بشي من الطب؛ وراحت ليسبث تنتظر خارج الباب في حال طُلب منها تقديم يد العون. شرحت للقسيس أن هذا هو الرجل الذي تنوي الزواج منه؛ وراح القسيس وزوجته يوبخانها بشدة على سلوكها غير المحتشم. أصغت ليسبث إليهما بهدوء، ثم كررت اقتراحها الأول. يتطلب الأمر الكثير من المسيحية للتخلص من الغرائز الشرقية غير المتمدنة، مثل الوقوع في شرك الحب من أول نظرة. إن ليسبث بعد أن وجدت الرجل الذي تعبد، لم تكن تفهم السبب الذي يجعلها لا تعبر عن صواب

اختيارها. لم تكن تنوي الابتعاد أيضاً. كانت ستعتني بذلك الإنكليزي حتى يتعافى إلى حدّ يصبح معه قادراً على الزواج منها. كانت تلك هي خطتها.

بعد أسبوعين من الحمى والالتهاب الخفيفين، استرد الإنكليزي وعيه ومنطقه، فشكر القسيس وزوجته وليسبث –وخاصة ليسبث– على معروفهم. كان رحالة في أرجاء الشرق –لم يكن هناك ذكر بعد لـ «جوّابي الكرة الأرضية» في تلك الأيام، حين كانت «الشركة البحرية البخارية لشبه الجزيرة والشرق» ما تزال جديدة وصغيرة– وهو قد وصل من «دهرا» بحثاً عن بعض النباتات والفراشات بين أرجاء جبال سيملا. لذلك لم يكن هناك في سيملا من يعرف عنه أي شيء إطلاقاً. وهو يظن أنه سقط من فوق جرف وهو يحاول الوصول إلى نبات الخنشار فوق جذع شجرة متعفن، وأن حمّاليه قد سرقوا لا بدّ أمتعته وفروا بعيداً. كان يفكر بالعودة إلى سيملا حين يصبح في حالة أفضل. لم يعد يرغب في المزيد من تسلق الجبال.

كان مستعجلاً على الرحيل، واسترد عافيته بسرعة. اعترضت ليسبث سواء لدى تلقيها النصح من القسيس أو من زوجته، لذلك كلمت الزوجة الشاب الإنكليزي وأنبأته عما يجري في قلب ليسبث. ضحك كثيراً وقال إنه أمر جميل وورمانسي جداً، ولكن بما أنه قد سبق له وخطب فتاة في الوطن، فهو يظن أن لا شيء سيحدث. بالتأكيد، سيتصرف بحذر وتعقل. وقد فعل ذلك. ومع ذلك فقد وجد الحديث إلى ليسبث، والسير معها، والتلفظ بأمور لطيفة تجاهها، ومناداتها بأسماء التحبّب، أمراً باعثاً جداً على السرور، وذلك خلال فترة نقاهته ريثما يصبح قادراً على الرحيل. لم يكن الأمر يعنيه إطلاقاً، بينما كان ذلك هو العالم بأجمعه بالنسبة إلى ليسبث. كانت سعيدة جداً خلال

فترة الأسبوعين تلك، لأنها وجدت رجلاً تحبه.

ولأنها ولدت من نسل أشخاص من الهمج، فهي لم تحاول أن تخفي مشاعرها، وقد وجد الشاب الإنكليزي تسلية في ذلك. وحين انطلق في طريقه ليرحل، سارت ليسبث معه صاعدة الجبل حتى «ناركوندا»، وهي تشعر بالقلق والبؤس الشديدين. كانت زوجة القسيس، وهي امرأة مسيحية عن حق وتكره كل ما يدعو إلى الهرج والمرج أو الفضيحة - كانت ليسبث خارج طاعتها تماماً- قد نصحت الشاب الإنكليزي أن يقول لليسبث إنه سيعود ليتزوجها. قالت زوجة القسيس: «إنها مجرد طفلة، كما تعلم، وأنا أخشى أنها في أعماق قلبها وثنية الهوى». لذلك راح الإنكليزي طوال الطريق الذي امتد لمسافة اثني عشر ميلاً صعوداً وهبوطاً في الجبل، وذراعه تحيط بخصر ليسبث، يؤكد لها أنه سيعود ويتزوجها. وقد جعلته ليسبث يعدها مرة إثر أخرى بذلك. بكت فوق سلسلة تلال ناركوندا حتى غاب عن ناظريها على امتداد «ممر موتياني».

ثم جففت دموعها وعادت إلى كوتغار مجدداً، وقالت لزوجة القسيس: «سيعود ويتزوجني. لقد مضى إلى أهله ليخبرهم بذلك». وقد هدّأت زوجة القسيس من روعها وقالت لها: «سيعود». انقضى شهران فبدأت ليسبث تشعر بنفاد الصبر، وقيل لها إن الإنكليزي قد عبر البحار ليصل إلى إنكلترا. وكانت هي تعرف أين تقع إنكلترا، فهي قد قرأت بعض كتب الجغرافية الصغيرة المخصصة للمدارس الابتدائية؛ ولكن لم يكن لديها بالطبع أي فكرة عن طبيعة البحر، فهي فتاة جبلية. كان لديها في المنزل خارطة قديمة للعالم بشكل أحجية (لعبة القطع المخرّمة) وقد سبق أن لعبت ليسبث بها وهي بعد طفلة صغيرة. بحثت عنها حتى وجدتها وأعادت تركيبها في الأمسيات، ثم بكت لوحدها،

وحاولت أن تتخيل أين هو ذلك الشاب الإنكليزي. وبما أنها لم تكن تحمل أي فكرة عن المسافات أو البواخر، فإن أفكارها كانت جامحة. وما كان الأمر سيمثل أي أهمية لو كانت تعرف بالضبط أين هو مكانه؛ فقد كان الشاب الإنكليزي لا ينوي إطلاقاً العودة ليتزوج الفتاة الجبلية. لقد نسيها تماماً ما أن وصل إلى «آسام» ليمارس فيها صيد الفراشات. وقد ألّف كتاباً عن «الشرق» في وقت لاحق، ولكن اسم ليسبث لم يرد فيه.

في نهاية الشهر الثالث راحت ليسبث تقوم برحلات يومية إلى ناركوندا لترى إن كان رجلها الإنكليزي قادماً على الطريق. كان ذلك يمنحها بعض الراحة، وكانت زوجة القسيس التي تراها أكثر سعادة تظن أنها أخذت تتجاوز «حماقتها الوحشية والفظة إلى أبعد الحدود». بعد فترة قصيرة ما عادت المشاوير تساعد ليسبث، وبدأ مزاجها يسوء إلى حد كبير. اعتقدت زوجة القسيس أن هذا كان هو الوقت الملائم لإبلاغها بحقيقة الأمر -أي أن الشاب الإنكليزي قد وعدها بالحب حتى يبقيها في حالة من السكينة- وأنه لم يكن يعني ما يقوله قط، وأنه كان أمراً خاطئاً وغير ملائم أن تفكر ليسبث بالزواج من شاب إنكليزي، وهو شخص من طينة أرقى من طينتها، كما أنه كان قد خطب فتاة من بني قومه. قالت ليسبث إن هذا كله مستحيل وبكل جلاء ووضوح لأنه قال لها إنه يحبها، كما أن زوجة القسيس قد أكدت لها بلسانها بأن الشاب الإنكليزي كان سيعود من أجلها.

سألت ليسبث: «كيف يمكن أن يكون ما قاله هو لي وما قلتِه أنت لي غير صحيح؟»

قالت زوجة القسيس: «قلنا ذلك كنوع من العذر حتى نبقيك في حالة من السكينة».

قالت ليسبث: «إذاً، فقد كذبتما علي، أنت وهو، أليس كذلك؟»

أومأت زوجة القسيس برأسها ولم تتلفظ بشيء. صمتت ليسبث أيضاً لفترة قصيرة. ثم خرجت وهبطت في الوادي، وعادت وهي ترتدي ثوب فتاة جبلية - كان ثوباً قذراً إلى حد مشين، ولكن دون أن تضع زر الأنف وحلق الأذنين. كانت قد جدلت شعرها في ضفيرة طويلة تتدلى من مؤخر رأسها، وقد تخللها خيط أسود كما تفعل نساء الجبل.

قالت: «سأعود إلى بني قومي. لقد قتلتم ليسبث. لم يتبق سوى ابنة (جاديه) القديمة - ابنة شخص من (الباهاري) وخادمة لـ «تاركا ديفي». كلكم كذابون أنتم الإنكليز».

حين شفيت زوجة القسيس من صدمة الإعلان بأن ليسبث قد عادت لتعتنق دين آلهة أمها، حتى كانت الفتاة قد رحلت، ولم تعد قط.

مارست حياة بني قومها بكل قذارتهم وعلى نحو وحشي، وكأنما أرادت أن تعوض عما فاتها سابقاً من الحياة التي أخرجت منها. وخلال وقت قصير تزوجت من حطاب كان يضربها حسب ما اعتاد عليه قومها من الباهاري، وسرعان ما خبا جمالها.

قالت زوجة القسيس: « لا يوجد قانون يمكنك الاعتماد عليه للشفاء من تقلبات هوى الوثنيين، وأعتقد أن ليسبث كانت كافرة طوال حياتها». وإذا ما أخذنا في الاعتبار أنه تم إدخال ليسبث لتعتنق ديانة كنيسة إنكلترا في سن ناضجة بلغت خمسة أسابيع، فإن ما قالته زوجة القسيس لا يشرفها.

كانت ليسبث امرأة في سن متقدمة جداً حين توفيت. وقد حافظت طوال حياتها على إتقانها للغة الإنكليزية، وحين كانت تثمل إلى حد كاف، فقد كان من الممكن تحفيزها لتروي قصة حبها الأول.

عندها كان من الصعب أن يرى المرء أنه كان ممكناً لهذه المخلوقة الدامعة العينين والتي غزتها التجاعيد، شأنها شأن قطعة من خرقة متفحمة، أن تكون هي «ليسبث إرسالية كوتغار».

---

(1)-ديانا هي آلهة الحيوانات البرية والصيد لدى الرومان. (المترجم)

٢- ثلاثة و... زيادة

بعد الزواج هناك ردة فعل، وهي تكون أحياناً كبيرة، وأحياناً صغيرة؛ ولكنها تأتي على نحو سريع أو تتأخر، ويجب أن يتم التغلب عليها من قبل الفريقين إذا أرادا لما يتبقى لهما من حياة أن تسير مع التيار.

في حالة الزوجين كوزاك - بريميل، لم تظهر ردة الفعل هذه حتى العام الثالث بعد زفافهما. كان من الصعب تحمّل بريميل في أفضل الأوقات؛ ولكنه كان زوجاً جميلاً حتى مات الطفل وارتدت السيدة بريميل ثياباً سوداء، وراح جسدها ينحل، ولم تعد تعامل زوجها بمودة. ربما كان على بريميل أن يواسيها. حاول أن يفعل ذلك، ولكنه كلما كان يحاول مواساتها كلما كانت السيدة بريميل تصاب بالحزن، وبالتالي، يصبح بريميل أكثر ضيقاً. وفي الواقع كانا كلاهما في حاجة إلى ترياق. وقد حصلا عليه. يمكن للسيدة بريميل أن تضحك الآن، ولكن المسألة لم تكن مضحكة بالنسبة إليها في ذلك الحين.

ظهرت السيدة هوكسبي على الأفق؛ وكانت ما أن تظهر حتى تكون هناك حتماً فرصة كبيرة لحصول مشكلة ما. في «سيملا» كان لقبها هو «طائر النوّ العاصف». وقد اكتسبت هذا اللقب خمس مرات حسب معرفتي. كانت امرأة ضئيلة القد، سمراء، نحيلة وضامرة تقريباً، ولها عينان واسعتان بلون أزرق بنفسجي. كانت تتحلى بأعذب سلوك في العالم. عليك فحسب أن تذكر اسمها عند تناول الشاي في فترة العصر، حتى تنهض كل امرأة موجودة في الغرفة لتقول إنها امرأة ملعونة. كانت ذكية وظريفة ولامعة الذهن ومتلألئة على نحو تبزّ به جميع قريناتها. إلا أنها كانت مسكونة بالكثير من شياطين الشر والخبث. يمكنها أن تكون لطيفة، حتى مع بنات جنسها. ولكن لهذا حكاية أخرى.

بعد وفاة طفله والأسى الذي تبع ذلك، أصبح بريميل طائشاً وعنيفاً، فقامت السيدة هوكسبي بإلحاقه بركبها. لم تكن تبالي بإخفاء أسراها. وقد فعلت ذلك علانية، وحرصت على أن يراها عموم الناس. راح هو يركب العربة معها ويمشي معها ويتحدث معها ويتنزه معها ويتغدى معها في «مطعم بيليتي»، حتى قطّب الناس حواجب أعينهم، وقالوا: «هذا أمر فظيع!» بقيت السيدة بريميل في المنزل وهي تقلّب ثياب الطفل الراحل وتبكي على المهد الفارغ. لم تعد تهتم بفعل أي شيء آخر. ولكن حوالي ثماني صديقات عزيزات ومحبات شرحن الوضع مطولاً لها في حال أنها لم تستوعب جوهر الأمر. أصغت السيدة بريميل بهدوء، وشكرتهن على جهودهن. لم تكن بذكاء السيدة هوكسبي، ولكنها لم تكن حمقاء. كتمت الأمر ولم تفاتح بريميل بما سمعته. وهذا أمر يستحق أن نتذكره. لم تكن هناك جدوى من التحدث إلى الزوج أو البكاء بين ذراعيه.

حين يكون بريميل في البيت، وهو أمر لا يحدث غالباً، فهو يتصرف على نحو أكثر حناناً من المعتاد؛ وقد دلّ هذا على مهارته. كان الحنان يصدر على الرغم منه، فهو يريد من ناحية أن يهدئ من وخز ضميره ومن ناحية أخرى أن يهدئ من خاطر السيدة بريميل. وقد فشل في كلا الأمرين. وقد صدرت الأوامر للمعاون الشخصي للحاكم العام وزوجته: لورد ليتون والليدي ليتون، بأن يدعو السيد والسيدة كوزاك – بريميل إلى بترهوف في 26 تموز (يوليو) الساعة 9.30مساء «---» حفل راقص» (وكانت هذه قد ذكرت في الزاوية اليسرى السفلية من بطاقة الدعوة).

قالت السيدة بريميل: «لا أستطيع الذهاب. لم يمض زمن طويل على (فلوري) الصغير المسكين... ولكن هذا لا يجب أن يمنعك من الذهاب يا

توم».

كانت تعني ما قالته آنذاك، وقال بريميل إنه سيذهب لمجرد تلبية الدعوة. وبهذا لم يكن هو صادقاً؛ وقد كانت السيدة بريميل تعرف ذلك. لقد حزرت -إن حزر المرأة أكثر دقة بكثير من يقين الرجل- أنه كان ينوي الذهاب منذ البداية، ومع السيدة هوكسبي بالذات. جلست لتفكر، وكانت نتيجة تفكيرها أن ذكرى طفل ميت كانت أقل قيمة بكثير من محبة زوج حي. أعدت خطتها واعتمدت على أن نجاحها سيحقق مأربها. في تلك الساعة اكتشفت أنها تعرف توم بريميل بكل معنى الكلمة، وقد راحت تتصرف بناء على هذه المعرفة.

قالت: «يا توم، سأتعشى في مطعم لونغمورز في مساء يوم 26 تموز (يوليو). الأجدر بك أن تتعشى في النادي».

وقد وفّر هذا على بريميل أن يجد عذراً للهروب وتناول العشاء مع السيدة هوكسبي، لذا شعر بالامتنان وأحس أنه صغير وحقير في الوقت نفسه... وكان هذا أمراً صحياً. غادر بريميل المنزل في الساعة الخامسة ليجد وسيلة ركوب. في حوالي الخامسة والنصف مساء، وصلت سلة كبيرة مغطاة بالجلد من محلات فيلبس من أجل السيدة بريميل. كانت امرأة تعرف كيف ترتدي ما يلائمها؛ وهي لم تنفق أسبوعاً على تصميم ذلك الثوب وقص قماشه وتزيينه بالحواشي وتطريزه وتقصيره وثنيه (أو مهما كانت تلك المصطلحات المستخدمة في هذا المجال)، عبثاً. كان ثوباً رائعاً... يستخف بالحِداد. لا أستطيع وصفه، ولكنه كان ما تصفه «الملكة» بأنه «إبداع»... كان شيئاً يصيبك مباشرة بين عينيك ويجعلك تشهق. لم تكن تتحلى بالكثير من الشجاعة بما كانت ستقدم عليه؛ ولكن بينما راحت تنظر إلى المرآة الطويلة فقد حازت على القناعة من معرفتها بأنه لم يسبق لها أن بدت بهذا الحسن

من قبل في حياتها. كانت امرأة شقراء جسيمة، وحين تريد، فقد كانت تستطيع أن تتحرك على نحو رائع.

بعد وجبة العشاء في مطعم لونغمورز، ذهبت إلى الحفل الراقص -متأخرة قليلاً- وقابلت بريميل مع السيدة هوكسبي مستندة إلى ذراعه. جعلها هذا تتورد خجلاً، وحين احتشد الرجال من حولها يطلبونها للرقص، بدت مهيبة. وقد وعدت الرجال بالرقصات التالية كلها عدا ثلاث إذ تركت هذه دون التزام. تبادلت النظر مع السيدة هوكسبي مرة واحدة فحسب؛ وقد عرفت أنها الحرب -حرب حقيقية- بينهما. بدأت هذه بالصراع في حالة من الإعاقة، فقد كانت تتأمّر كثيراً على بريميل، وكان قد بدأ يستاء من ذلك. وإضافة إلى ذلك، لم يسبق له أن شاهد زوجته تبدو جميلة إلى ذلك الحد. حدق إليها من المداخل، وحملق إليها من الممرات؛ وكلما ازداد تحديقاً إليها كلما كان يشعر بالمزيد من الإعجاب. لم يستطع أن يصدق إلا بالكاد أن هذه هي المرأة ذات العينين المحمرتين والثوب الأسود التي اعتادت أن تبكي فوق طبق البيض على مائدة الفطور.

بذلت السيدة هوكسبي جهدها لتبقيه تحت إمرتها، ولكن بعد رقصتين، عبر الصالة نحو زوجته وطلب منها أن ترقص معه.

قالت بعينين متلألئتين: «أخشى أنك تأخرت كثيراً أيها السيد».

ثم توسل إليها أن تمنحه رقصة واحدة، وقد سمحت له وبمنّة كبيرة أن يرافقها في رقصة الفالس الخامسة. ومن حسن الحظ أن هذه الرقصة لم تكن محجوزة في برنامجه. وقد رقصا معاً، وجرت بلبلة صغيرة في صالة الرقص. كان لدى بريميل فكرة ما عن أن زوجته قادرة على الرقص، لكنه لم يكن يعرف أبداً أنها ترقص على ذلك النحو الرائع. في نهاية تلك الرقصة، طلب منها رقصة أخرى... كمنّة، وليس كحق

من حقوقه. وقالت السيدة بريميل: «أرني برنامجك يا عزيزي!» أراها البرنامج كما من شأن تلميذ مدرسة صغير وشقيّ أن يسلم إلى معلّمه حلوى محظورة. كان حرف «هـ» متناثراً بكثرة فوق البرنامج، وكان هناك حرف «هـ» أيضاً مقابل كلمة «عشاء». لم تقل السيدة بريميل أي شيء، ولكنها ابتسمت بازدراء، ومرت بقلمها الرصاص عبر رقم سبعة وتسعة فحذفت حرف «هـ» مرتين، وأعادت البطاقة واسمها مكتوب فوق هذين الرقمين، واستخدمت اسم تدليل لها لا يستخدمه سوى زوجها. ثم هزت أصبعها باتجاهه، وقالت ضاحكة: «أوه، أنت أيها الصبي الأحمق، الأحمق!».

سمعت السيدة هوكسبي ذلك- شعرت بالاستياء التام. قبل بريميل الرقصتين سبعة وتسعة بامتنان. رقصا الرقم سبعة وجلسا معاً خلال عزف الرقم تسعة في واحدة من تلك الخيم الصغيرة. ما الذي قاله بريميل وما فعلته السيدة بريميل لم يكونا من شأن أي شخص آخر.

وحين عزفت الفرقة الموسيقية لحن «لحم البقر المشوي لإنكلترا العجوز»، خرج الاثنان إلى الشرفة، بدأ بريميل البحث عن سائق عربة زوجته (كان هذا قبل أيام العربات ذات الدولابين التي يجرها شخص)، بينما ذهبت هي إلى حجرة إيداع العباءات. اقتربت السيدة هوكسبي وقالت: «هل ستصطحبني إلى العشاء على ما أعتقد، ياسيد بريميل؟» تضرج وجه بريميل وبدا كشخص أحمق. قال: «آه... احم! أنا ذاهب إلى البيت مع زوجتي يا سيدة هوكسبي. أظن أن خطأ صغيراً قد حدث». وبما أنه رجل، فقد تكلم وكأن السيدة هوكسبي كانت تتحمل كامل المسؤولية.

خرجت السيدة بريميل من غرفة إيداع العباءات في عباءة مطرزة برسمة لبجعة مع «غيمة» بيضاء من حول الرأس. بدت متألقة، وكانت

كذلك بالفعل.

خرج الزوجان نحو العتمة معاً، وبريميل يركب ملتصقاً بسائق العربة.

ثم قالت السيدة هوكسبي لي -بدت شاحبة بعض الشيء ومنهكة تحت نور المصباح- « اسمع نصيحتي. إن أكثر النساء حماقة يمكنها أن تدبر أمر رجل ذكي؛ ولكن يتطلب الأمر امرأة ذكية جداً حتى تدبر أمر رجل أحمق». ثم خرجنا هي وأنا لتناول العشاء.

٣- المنبوذ

والبعض منهم عابسون، بينما البعض الآخر سيتهوّر.

[لذا انتبه! اثبت! قف ساكناً، أنت!]

البعض منكم لطفاء، وعلى البعض أن يطعن.

[مهلاً! مهلاً! من يريد قتلكم؟]

البعض -هناك خسائر في كل مهنة-

سيحطمون قلوبهم قبل أن يُشكموا ويصنعوا،

سيقاتلون كالشياطين حين يحزّ الحبل بقوة،

ويموتون كالمجانين في حوض التحطيم.

•(كورس فناء الماشية تولونغالا)

أن تربي صبياً وفق ما يسميه الآباء بـ «نظام الحياة المحمية» لهو أمر غير حكيم، لو كان على هذا الصبي أن يخوض غمار الحياة في هذه الدنيا، ويعتمد على نفسه. وما لم يكن فريداً ومتميزاً، فسيكون عليه حتماً أن يعاني من مشاكل غير ضرورية؛ وربما سيصاب بحزن شديد لمجرد جهله بالحجم الحقيقي للأمور.

دع جرواً يأكل الصابونة في الحمام، أو أن يلوك جزمة تم طلاؤها للتو. إنه سيمضغ ويضحك حتى يجد في النهاية أن الطلاء الأسود والصابون من نوع «أولد براون ويندسور» يمرضانه ويشعرانه بالغثيان. لذلك فهو سيقتنع بأن الصابون والأحذية غير مفيدة للصحة. إن أي كلب عجوز في المنزل سرعان ما سوف يريه الحماقة المتجلية في عضّ آذان الكلاب الكبيرة. ولأنه ما يزال صغير السنّ، فهو يتذكر

ويسافر إلى خارج البلاد، وخلال ستة أشهر سيكون عبارة عن وحش صغير ذي شهية مؤدبة. إذا كان قد تم إبعاده عن الجزمات والصابون والكلاب الكبيرة حتى وصوله إلى الثالوث وقد أصبح تام النمو وبأسنان كاملة، فتصوروا كم سيكون مريضاً ومهزوماً! طبّق هذه الفكرة على «الحياة المحمية» وانظر كيف تفعل فعلها. إنها لا تبدو جيدة، ولكنها أفضل الشرّين.

كان هناك «غلام» ذات مرة تمت تربيته وفق مبادئ نظرية «نظام الحياة المحمية»؛ وقد قتلته هذه النظرية. لقد مكث مع أبويه طوال أيامه، من الساعة التي ولد فيها حتى الساعة التي التحق فيها بـ «الأكاديمية الملكية العسكرية في ساندهيرست» كواحد من النخبة تقريباً. وقد تم تعليمه جميع علامات النجاح من قبل معلم خصوصي، وتحمل العبء الإضافي الكامن في «عدم جعل أبويه يقلقان ولو لساعة واحدة طوال حياته». وما تعلمه في ساندهيرست خلاف الروتين المعتاد ليس بالأمر الهام. كان ينظر من حوله، فيجد الصابون وطلاء الأحذية -على حد تعبيرنا- على أنهما جيدان جداً. أكل القليل منهما، وخرج من ساندهيرست ليس بالمستوى الذي دخل به إليها. ثم مرت فترة من الزمان وحدث سوء تفاهم بينه وبين أبويه اللذين توقعا الكثير منه. ثم تبعت ذلك سنة كاملة من العيش دون أن يكون مرئياً في كتيبة مستودعات حيث كان جميع صغار العائلة مجرد أطفال وجميع الكبار في السن نساء متقدمات في السن. وأخيراً، مضى إلى الهند، حيث لم يعد يتلقى الدعم من أبويه ولم يعد لديه من يلجأ إليه حين يواجه أي مشكلة إلا نفسه.

والآن، فإن الهند مكان يتجاوز جميع الأمكنة من حيث أن على المرء ألا يأخذ الأمور بالكثير من الجدية... باستثناء شمس منتصف النهار.

الكثير من العمل والكثير من الحيوية يقتلان الرجل على نحو فعال جداً شأن الكثير من الرذيلة المنوعة أو الكثير من الشراب. المغازلة لا تهم إطلاقاً، لأن كل شخص سيتم نقله، فإما أنك ستغادر «الموقع» ولن تعود أبداً إليه، أو أن الفتاة ستفعل الأمر نفسه. الأداء الجيد في العمل لا يهم، لأن الرجل كان يحكم عليه من خلال أسوأ ما ينتجه، بينما يحكم على رجل آخر من خلال أفضل ما ينتجه عموماً وليس دائماً. الأداء السيئ للعمل لا يهم، لأن رجالاً آخرين يفعلون ما هو أسوأ، والرجال غير الكفؤين يبقون في وظائفهم في الهند لفترة أطول مما هو عليه الأمر في أي مكان آخر. والتسليات لا تهم، لأن عليك أن تكررها ما أن تقوم بها مرة واحدة، ومعظم التسليات لا تعني سوى محاولة كسب نقود شخص آخر. والمرض لا يهم، لأن الأمر يتوقف على العمل النهاري، ولو مت، فإن شخصاً آخر سيحل مكانك ويحتلّ مكتبك خلال الساعات الثمانية التي تفصل بين الوفاة والدفن. لا شيء يهم على الإطلاق باستثناء الإجازة التي تُمنح لتتم تمضيتها في الوطن والتعويض الدائم، والسبب في ذلك أنهما كانا نادرين. إنها بلاد يعمها الكسل حيث يعمل جميع الرجال بأدوات يعوزها الكمال؛ وكان الأمر الأكثر حكمة هو الهرب بأسرع وقت ممكن إلى مكان ما حيث التسلية تسلية حقيقية والسمعة تستحق أن ينالها المرء.

ولكن هذا «الغلام» -والحكاية قديمة قدم «الجبال»- وصل إلى الهند وأخذ الأمور كلها بجدية. كان وسيماً ومدلّلاً. وقد نظر إلى هذا التدليل بجدّ، وراح يغتاظ من نساء لا تستحق الواحدة منهن أن يسرج الرجل فرساً لزيارتها. وقد طابت له حياته الجديدة والمتحررة في الهند إلى حد كبير. وهي تبدو جذابة في البداية من وجهة نظر ملازم أول في الجيش: فهناك الأفراس والرفاق وحفلات الرقص وغير

ذلك. وقد تذوقها كما يتذوق الجرو الصابونة. إلا أنه وصل متأخراً إلى هذا التذوق، فقد كانت أسنانه كلها كاملة النمو. لم يكن يتحلى بحس التوازن -شأن الجرو- ولم يستطع أن يفهم السبب في أنه لم تتم معاملته بالمراعاة نفسها التي كان يتلقاها تحت سقف أبويه. وقد جرحت مشاعره نتيجة لذلك.

راح يتشاجر مع «الغلمان» الآخرين، وبما أنه كان حساساً إلى أقصى حد ممكن، فقد كان يتذكر تلك الشجارات، إذ كانت تثير أعصابه. طابت له لعبة الورق المسماة «هويست»، وقضاء الوقت في النوادي وما شابه ذلك (وكان المقصود منها تسلية المرء بعد العمل)؛ ولكنه أخذ هذه على محمل الجد أيضاً، وكان ذلك بجدية تعادل تلك الجدية التي أخذ بها «الصداع» الذي كان ينتابه بعد الشراب. وقد راح يخسر نقوده في لعب الهويست وفي النادي لأنهما كانا جديدين بالنسبة إليه.

وقد راح يتعامل مع خساراته بجدية، كما راح ينفق الكثير من الطاقة والاهتمام على سباقات الأفراس بمبلغ جنيهين ذهبيين من العملة الهندية-البريطانية والتي تتسابق فيها أفراس أسترالية ذات أعراف مقوّسة، وكأنه يمارس ذلك في سباقات «ديربي» في إنكلترا. وكان نصف ذلك ناجماً عن قلة التجربة -تماماً كما يحدث مع الجرو وهو يقاتل ركن بساط المدفأة الجدارية- ونصفه الآخر من الدوار الذي أصابه نتيجة الخروج متعثراً من حياته الهادئة إلى وهج وإثارة حياة أكثر نشاطاً. لم يسبق أن حكى له أي شخص عن الصابون والطلاء الأسود، لأن الشخص العادي يسلّم جدلاً بأن الشخص العادي حريص على نحو عادي فيما يخصهما. كان أمراً مثيراً للشفقة مراقبة هذا «الغلام» وهو يجهد نفسه كما يحدث للمهر المدلل حين يسقط ويجرح نفسه حين يبتعد عن سائسه.

هذا التصريح مطلق العنان بالانغماس في التسليات لا يستحق الهروب من الخدمة ولا حتى الإخلال بالأمن لمدة طالت حتى ستة أشهر -وكان ذلك كله خلال موسم واحد من الطقس البارد- ثم ظننا أنه مع بداية موسم الحرّ ومعرفته بأنه خسر أمواله وصحته وتسبب بعرج جياده، فإنه سيصبح متزناً. الغلام كئيب الآن ثم سيشفى من ذلك. في تسع وتسعين حالة من مائة كان ممكناً لهذا أن يحدث. يمكن لك أن ترى هذا المبدأ ساري المفعول في أي موقع هندي. ولكن في هذه الحالة بالذات لم يجر الأمر على هذا المنوال لأن «الغلام» كان حساساً، ولأنه أخذ الأمر بجدية... كما سبق لي وقلته سبع مرات. بالطبع، لا يمكننا أنْ نعرف كيف أثرت عليه سلوكياته المفرطة شخصياً. لم تكن ساحقة للقلب إلى حد كبير أو زائدة عن الحد المتوسط. ربما كان قد أصبح في حالة إفلاس قد تستمر العمر كله، وهو في حاجة إلى القليل من الرعاية والعناية. وكان يمكن لذكرى إنجازاته أن تخبو خلال موسم واحد من الطقس الحار، كما كان ممكناً لأصحاب البنوك أن يساعدوه على حل مشاكله المالية. ولكن لا بد وأنه قد اتخذ وجهة نظر أخرى، وآمن بأنه قد وصل إلى حالة من الانهيار لا عودة بعدها إلى إصلاح الأحوال. تحدث إليه العقيد آمر الفوج بلهجة مشددة بعد انتهاء موسم الطقس البارد. وقد جعله هذا أكثر بؤساً إلى حد مطلق. ولم يكن ذلك إلا مجرد تعنيف عادي من العقيد!

وما تبع ذلك لهو مثال مثير للفضول على الأسلوب الذي يربطنا جميعاً معاً ويجعلنا مسؤولين الواحد عن الآخر. والأمر الذي أدى بالغلام إلى اليأس المطلق هو ملاحظة قالتها له امرأة وهو يتبادل معها الحديث. لا فائدة من تكرارها، فقد كانت مجرد جملة صغيرة لئيمة تم التلفظ بها على عجل دون تفكير، مما جعل الدم يشيع في وجهه حتى

منبت شعره. بقي وحيداً لمدة ثلاثة أيام، ثم طلب يومي إجازة ليذهب للصيد قرب «منزل الاستراحة المسمى كانال إنجينيرز» الذي يبعد حوالي ثلاثين ميلاً. وقد نال الإجازة، وفي تلك الليلة، في غرفة الطعام المشتركة، كان أكثر صخباً وعدوانية مما عرف عنه من قبل. قال إنه «ذاهب لاصطياد طرائد كبيرة»، ثم غادر في الساعة العاشرة والنصف في عاصفة من الضحك. كان الحجل هو الطريدة الوحيدة التي يمكن للرجل أن يصطادها قرب «منزل الاستراحة»، وهو ليس بالطريدة الكبيرة. لذلك ضحك جميع الحاضرين.

في صباح اليوم التالي، وصل أحد الضباط برتبة رائد ليقضي إجازة قصيرة، وسمع بأن «الغلام» قد خرج ليصطاد «طريدة كبيرة». كان هذا الرائد مهتماً بهذا «الغلام»، وحاول أكثر من مرة أن يوقفه عند حده. رفع الرائد حاجبيه حين سمع برحلة الصيد تلك، وذهب إلى مبنى سكن الغلام وراح يفتش عنه.

وصل الرائد إلى المكان ووجدني أترك ورق اللعب فوق مائدة الطعام المشتركة. لم يكن هناك من شخص آخر في غرفة الانتظار.

قال: «الغلام قد خرج ليصطاد. هل يصيد المرء الطيور بمسدس وحقيبة تحوي أدوات الكتابة؟»

قلت: «هراء أيها الرائد!» فقد فهمت ما كان يلمح إليه.

قال: «هراء أو لا هراء. سأذهب الآن إلى الكنال... على الفور. أنا قلق».

ثم فكر لدقيقة، وقال: «هل تستطيع أن تكذب؟»

أجبته: «أنت تعرفني أفضل من الجميع. إنها مهنتي».

قال الرائد: «حسناً، عليك أن تذهب معي الآن -على الفور- في

عربة، إلى الكنال لاصطياد ظبي أسود. اذهب واجلب صندوق العدة ومسدساً».

كان الرائد رجلاً بارعاً ومستبداً، وكنت أعرف أنه لا يعطي الأوامر عبثاً. لذلك أطعته وعند العودة وجدت الرائد وقد جلس في عربة ومعه السلاح والطعام... مستعداً تماماً لرحلة صيد.

صرف الحوذي وقاد العربة بنفسه. كان سيرنا هادئاً ونحن في الموقع؛ ولكن ما أن وصلنا إلى الطريق الترابي عبر السهول، فقد جعل تلك الفرس تطير. الفرس التي تربت في الريف يمكنها أن تقوم بأي شيء لدى أول لسع لها. قطعنا الأميال الثلاثين في أقل من ثلاث ساعات، ولكن الفرس المسكينة كادت تلفظ آخر أنفاسها.

قلت ذات مرة: «ما الذي يدفعنا إلى كل هذه السرعة اللاهبة أيها الرائد؟»

قال بهدوء: «الغلام كان وحيداً منذ ساعة وساعتين وخمس... منذ أربع عشرة ساعة الآن! أقول لك إني أشعر بالقلق».

وقد انتقل هذا القلق إليّ فساعدته على حث الفرس على الإسراع.

حين وصلنا إلى منزل استراحة كنال إنجينيرز، نادى الرائد على خادم «الغلام»؛ ولكن لم يكن هناك من ردّ. ثم صعدنا إلى المنزل، ونادينا على «الغلام» بالاسم؛ ولكن لم يكن هناك من جواب.

قلت: «أوه، إنه يصطاد في الخارج».

في تلك اللحظة، شاهدت عبر إحدى النوافذ مصباح الأعاصير الصغير متوهجاً. وكان هذا في الساعة الرابعة عصراً. جمدنا كلانا في مكانينا في الشرفة ونحن نتوقف عن التنفس حتى لا يفوتنا أي صوت؛ وقد

سمعنا من داخل الغرفة صوت الذباب المهوّم فيها، الكثير الكثير من الذباب. لم يتلفظ الرائد بأي كلمة، ولكنه خلع خوذته ودخلنا إلى الغرفة بهدوء.

كان «الغلام» ميتاً فوق السرير في منتصف الغرفة الفارغة المطلية بالكلس. كان قد أطلق النار على رأسه من مسدسه فحطمه تماماً. كانت ذخيرة المسدس ما تزال محزمة بشريطها، وكذلك البطانية، وعلى المنضدة كانت علبة أدوات الكتابة خاصة «الغلام» مع صور فوتوغرافية. لقد ابتعد ليموت كجرذ مسموم.

قال الرائد لنفسه بصوت خافت: «يا للغلام المسكين! يا للشيطان المسكين المسكين!» ثم التفت بوجهه عن السرير وقال: «أريد مساعدتك في هذه المهمة».

وبما أني أعرف أن «الغلام» قد قتل نفسه بيده، فقد حزرت بالضبط ما نوع المساعدة، لذلك توجهت إلى المنضدة وجلست على كرسي، وأشعلت سيجاراً من صنف «شيروت»، وبدأت أتفحص وأقرأ محتويات علبة أدوات الكتابة. كان الرائد يقرأ من فوق كتفي ويكرر قائلاً لنفسه: «لقد تأخرنا كثيراً!... أشبه بجرذ في جحر!... يا للشيطان المسكين المسكين!»

لا بدّ وأن «الغلام» قد أنفق نصف الليلة وهو يكتب إلى أهله، وإلى العقيد آمر فوجه، وإلى فتاة في الوطن. ويبدو أنه ما أن انتهى من الكتابة، حتى أطلق النار على نفسه، فقد كان قد مرّ وقت طويل على وفاته حين دخلنا إلى غرفته.

قرأت كل ما كتبه، ومررت كل صفحة إلى الرائد بعد الانتهاء من قراءتها.

وقد رأينا من خلال ما كتبه كم كان جدياً في فهمه لكل ما جرى له. كتب عن «الخزي الذي لم يستطع تحمله»... «العار المتعذر محوه»... «الحمق الإجرامي»... «الحياة المبدَّدة»، وهلم جراً؛ هذا بالإضافة إلى الكثير من الأمور الخصوصية كتبها إلى أبيه وأمه وهي أقدس من أن يتم نشرها. وكانت الرسالة الموجهة إلى الفتاة في الوطن هي الأكثر إثارة للشفقة بين جميع ما كتبه، وقد شعرت بغصّة وأنا أقرأها. لم يحاول الرائد أن يغالب البكاء. وقد شعرت بالاحترام تجاهه لقاء ذلك. لقد قرأ وهو يؤرجح نفسه إلى الأمام والخلف، ويبكي بسهولة كما قد تفعل امرأة ما دون أن تحاول إخفاء ذلك. كانت الرسائل كئيبة ويائسة ومؤثرة إلى آخر حد ممكن. نسينا كل ما يتعلق بحماقات «الغلام»، وفكرنا فحسب بهذا الشخص المسكين فوق سريره والصفحات المكتوبة بخط رديء التي كانت بين أيدينا. كان من المستحيل تماماً ترك الرسائل ترسل إلى الوطن. كان من شأنها أن تحطم قلب الأب وتقتل الأم بعد أن تقتل إيمانها بابنها.

وأخيراً جفف الرائد عينيه بصراحة، وقال: «ليس هذا بالشيء الجيد حتى نتركه يحلّ بأسرة إنكليزية! ما الذي سنفعله؟»

قلت وأنا أعرف السبب الذي جعلني الرائد أصطحبه لأجله: «الغلام مات من الكوليرا. وقد كنا معه خلال ذلك. لا نستطيع أن نقصر في تدابيرنا. هيا بنا».

ثم بدأ واحد من أكثر المشاهد الهزلية والكالحة في آن معاً والتي حدث أن شاركت فيها طوال حياتي: اختراع كذبة كبيرة مكتوبة، مدعومة بالأدلة، لمواساة أسرة «الغلام» في الوطن. بدأت بكتابة مسودة الرسالة، والرائد يرمي إليّ بالتلميحات وهو يلملم جميع المواد التي كتبها «الغلام» ويحرقها في المدفأة. كانت تلك أمسية حارة

وساكنة حين بدأنا، وكان المصباح سيئ الشعلة. وفي الوقت الملائم كتبت المسودة على نحو مرضٍ، فذكرت فيها كيف أن «الغلام» كان نموذجاً للفضائل، ومحبوباً من أعضاء فوجه، وكان متوقعاً له النجاح العظيم كضابط، وهكذا دواليك. ثم ذكرت كيف قدمنا له يد العون في مرضه -ولم يكن لدينا الوقت الكافي لذكر أكاذيب صغيرة، كما يمكنكم أن تفهموا- وكيف أنه مات دون أن يعاني من الألم. شعرت بغصة وأنا أكتب هذه الأشياء وأفكر في أولئك الأشخاص المساكين الذين سيقرؤونها. ثم ضحكت من غرابة هذه المسألة كلها، وامتزجت الضحكة بالغصة... ثم قال الرائد إننا في حاجة إلى تناول كأس من الشراب.

أخشى أن اذكر لكم الكمية التي شربناها من الويسكي قبل أن نكمل كتابة الرسالة. لم يؤثر الشراب بنا إطلاقاً. ثم أخذنا ساعة يد «الغلام» وقلادته وخواتمه.

وأخيراً قال الرائد: «علينا أن نرسل خصلة من شعره أيضاً. النساء يثمّنَ ذلك».

ولكن كانت هناك أسباب جعلتنا لا نجد خصلة شعر ملائمة لإرسالها. كان «الغلام» أسود الشعر، وكذلك الرائد لحسن الحظ. قصصت خصلة صغيرة من شعر الرائد من فوق الصدغ بسكين، ووضعتها في الرزمة الصغيرة التي كنا نوضبها. انتابتني مجدداً نوبة الضحك وكذلك الغصات، وكان عليّ أن أتوقف عن ذلك. وكان الرائد في حالة سيئة مشابهة تقريباً. ثم عرفنا كلانا أن الجزء الأسوأ من المهمة كان سيأتي لاحقاً.

لففنا الرزمة مع الصور والقلادة والأختام والخاتم والرسالة وخصلة الشعر وختمناها بشمع «الغلام» وبخاتمه.

ثم قال الرائد: «من أجل الرب، فلنخرج من هنا -بعيداً عن هذه الغرفة- ونفكر!»

مضينا إلى الخارج، وسرنا نحو ضفة الكنال لمدة ساعة، ونحن نأكل ونشرب ما كان معنا من طعام وشراب، حتى بزغ القمر. أعرف الآن بالضبط كيف يشعر القاتل. وأخيراً، أجبرنا نفسينا على العودة إلى الغرفة مع المصباح و«الشيء الآخر» الذي فيه، وبدأنا نقوم بالجزء الآخر من المهمة. لن أكتب عن هذا الأمر. كان أمراً رهيباً جداً. أحرقنا هيكل السرير ورمينا بالرماد في الكنال؛ أخذنا الحصر التي في الغرفة وفعلنا بها ما فعلناه بهيكل السرير. ذهبت إلى إحدى القرى واستعرث مجرفتين -لم أكن أريد أن يقدم القرويون المساعدة- بينما تدبر الرائد المسائل الأخرى. وقد استغرق منا الأمر أربع ساعات من العمل الشاق حتى حفرنا القبر وجهزناه. وبينما كنا نعمل، تجادلنا حول ما إذا كان أمراً ملائماً أن نتلو صلاة «دفن الميت». وقد توصلنا إلى حل وسط بأن تلونا «صلاة الرب» الخصوصية وعلى نحو غير رسمي من أجل سلام روح «الغلام». ثم ملأنا القبر بالتراب وذهبنا إلى الشرفة -وليس المنزل- حتى ننام. كنا منهكين إلى أقصى حد ممكن.

حين استيقظنا، قال الرائد بلهجة مرهقة: «لا يمكننا العودة حتى الغد. علينا أن نمنحه وقتاً كافياً يموت خلاله. لقد مات في وقت مبكر من هذا الصباح، فتذكر ذلك. سيبدو هذا طبيعياً إلى حد أكبر. لذلك ربما كان الرائد مستيقظاً طوال الوقت، وهو يفكر.

قلت: «إذاً، لمَ لم نجلب الجثمان معنا إلى المعسكر؟»

فكر الرائد للمدة دقيقة. قال: «لأن الناس يهربون حين يسمعون بالكوليرا. كما أن العربة قد رحلت!»

كان هذا صحيحاً بالضبط. لقد نسينا قصة فرس العربة، وكان الحوذي قد ذهب إلى بيته.

إذاً، كنا هناك وحيدين، طوال ذلك النهار القائظ، في منزل استراحة الكنال، ونحن نتباحث ثم نعيد التباحث في قصتنا حول وفاة «الغلام» لنرى إن كان فيها أي نقطة ضعف. ظهر شخص محلي في فترة ما بعد الظهر، ولكننا قلنا إن هناك «صاحباً»(2) قد توفي من الكوليرا، فما كان منه سوى أن هرب بعيداً. ومع حلول الغسق، فإن الرائد روى لي جميع مخاوفه فيما يخص «الغلام»، وحكايات رهيبة عن الانتحار أو محاولات الانتحار التي كادت تنجح... حكايات تجعل شعر المرء يقف من الذعر. قال إنه هو شخصياً قد سار في «وادي الظلال» نفسه كما فعل «الغلام»، حين كان شاباً صغير السن يصل إلى الهند للتو. لذلك فهو يفهم كيف أن الأمور تشابكت في الذهن المسكين المشوش لـ «الغلام». كما قال أيضاً إن الشبان صغار السن، في لحظات توبتهم، يعتبرون خطاياهم أخطر وأصعب على المحو مما عليه حقاً. تبادلنا الحديث طوال المساء ثم كررنا تدريبنا على بروفة حكاية موت «الغلام». وما أن بزغ القمر، و«الغلام» قد تم دفنه نظرياً، مشينا عبر الريف باتجاه «الموقع». سرنا من الساعة الثامنة حتى السادسة صباحاً؛ ولكن على الرغم من أننا كنا منهكين إلى أقصى حد، إلا أننا لم ننس أن نذهب إلى غرفة «الغلام» لإخفاء مسدسه ووضع العدد الملائم من الطلقات في الجراب. كما وضعنا علبة أدوات الكتابة خاصته فوق المنضدة. وجدنا «العقيد» وأبلغناه بالوفاة، ونحن نشعر كأننا قاتلان أكثر من أي وقت مضى. ثم ذهب كل منا إلى فراشه ونام اثنتي عشرة ساعة كاملة فقد كان الإرهاق قد استنفد كل ما فينا من طاقة.

وقد نالت الحكاية التصديق حسب ما كان ضرورياً؛ فقد نسي الجميع

«الغلام» قبل مرور أسبوعين على وفاته. ولكن الكثير من الأشخاص وجدوا من الوقت ما يكفي -على أي حال- ليقولوا إن الرائد قد تصرف على نحو فضائحي لأنه لم يجلب الجثمان لينال جنازة حسب تقاليد الفوج. وكان أكثر الأمور إثارة للحزن هو الرسالة التي وصلت من والدة «الغلام» موجهة إلى الرائد وإليّ أنا... وكانت الورقة مغطاة ببقع حبر كبيرة. لقد عبرت عن أعذب المشاعر الممكنة على معروفنا العظيم والامتنان الذي سوف تشعر به تجاهنا طوال حياتها الباقية.

مع أخذ كل شيء في الاعتبار، فقد كانت تشعر بامتنان ملزم، ولكن ليس بالضبط كما كانت تعنيه.

---

(2)-كلمة «صاحب» هي اللقب الذي كان الهنود يخاطبون به الإنكليز في الهند، وتعني «السيد». من الواضح أن هذه الكلمة مشتقة من اللغة العربية، لذلك كتبتها بهذا الشكل وليس كما تُلفظ في الهند أي «ساهيب». (المترجم)

٤- مقرونة إلى كافر

أنا أموت من أجلك، وأنت تموت من أجل شخص آخر.

•(مثل من البنجاب)

حين غادر مركب بلدة غريفسند -الذي يواصل ما بين شاطئ نهر التيمز والسفن- مبتعداً عن باخرة «الشركة البحرية الشرقية» المتجهة إلى بومباي، وعاد إلى الشاطئ ليتمكن ركابه من اللحاق بالقطار المتجه إلى البلدة، كان هناك أناس كثيرون فيه يجهشون بالبكاء. ولكن الشخص الذي فاق الجميع بالبكاء كان الآنسة آغنس لايتر. وكان لديها مبرر للبكاء، لأن الرجل الوحيد الذي سبق لها أن أحبته -أو استطاعت أن تحبه- كما قالت، كان راحلاً إلى الهند. والهند، كما يعرف الجميع بلد تتقاسمه الأدغال والنمور وثعابين الكوبرا ووباء الكوليرا والعساكر الهنود الخاضعين لإمرة البريطانيين أو قوى أوربية أخرى.

وشعر فيل غارون، الذي كان يتكئ على حافة الباخرة تحت المطر، بحزن شديد هو أيضاً. إلا أنه لم يكن يبكي. لم تكن لديه أي فكرة ولو غامضة عما كانت تعنيه كلمة «شاي»، ولكن تصور أنه سيضطر إلى ركوب حصان طافر عبر تلال مغطاة بنباتات الشاي، وأنه سينال راتباً سخياً مقابل ذلك. كما كان شديد الامتنان لعمه لأن هذا تدبر له مضجعاً على متن الباخرة. إنه ينوي أن يصلح جميع تصرفاته الكسولة التافهة ويوفر جزءاً كبيراً من راتبه الكبير كل عام، وخلال وقت قصير سيعود ليتزوج من آغنس لايتر. كان فيل غارون يعيش معتمداً على إحسان أصدقائه منذ ثلاث سنوات، وبما أنه لم يكن لديه ما يفعله، فقد وقع طبعاً في الحب. كان لطيفاً جداً؛ ولكنه لم يكن قوياً في التمسك بآرائه ووجهات نظره ومبادئه، وعلى الرغم من أنه لم يعرف الحزن الحقيقي،

إلا أن اصدقاءه كانوا ممتنين حين ودعهم ليمضي ويمارس هذا العمل الغامض المسمى «شاي» قرب دارجيلينغ. قالوا: «فليباركك الله أيها الشاب العزيز! دعنا لا نرى وجهك مرة أخرى،» - أو على الأقل هذا ما استطاع فيل فهمه منهم.

حين ركب البحر، شعر أنه مفعم جداً بخطة كبيرة ليبرهن على أنه أفضل بمئات المرات من أي مديح سبق أن تلقاه عن أي عمل أداه: سيعمل بكد كالحصان ثم يتزوج مكللاً بالنصر من آغنس لايتر. كان يتحلى بالكثير من المزايا إضافة إلى وسامته؛ أما علته الوحيدة فكانت أنه ضعيف، ضعيف إلى آخر حد ممكن. كانت فكرته عن الاقتصاد واهية كشمس الصباح؛ ومع ذلك ما كنت تستطيع أن تلمس أي ميزة فيه وتقول: «في هذا الموضع فيل غارون متطرف أو متهور». ولا كنت تستطيع أن تشير إلى أي نقيصة معينة في شخصيته؛ ولكنه كان «غير مرضٍ» وكان عملياً كالمعجون.

تابعت آغنس لايتر أداء واجباتها في البيت -كانت أسرتها تعترض على تلك الخطوبة- وذلك بعينين حمراوين، بينما كان فيل يبحر باتجاه دارجيلينغ، وهو «ميناء على المحيط البنغالي»، كما اعتادت أمه أن تقول لأصدقائها. وقد تمتع بشعبية كافية على متن الباخرة، وتعرف على أشخاص كثيرين وصرف الكثير من النقود على الشراب وأرسل رسائل هائلة الطول من كل ميناء إلى آغنس لايتر. ثم بدأ العمل في تلك المزرعة التي تقع في مكان ما بين دارجيلينغ وكانغرا، وعلى الرغم من خيبة أمله من الراتب والحصان والعمل إذ لم يصل أي منها إلى ما كان يتخيله، إلا أنه نجح في عمله إلى حد كبير، وامتدح نفسه على نحو غير ضروري على مثابرته ودأبه.

مع مرور الزمن، ومع تأقلمه مع محيطه، وأصبح عمله أكثر استقراراً،

خبا وجه آغنس لايتر من ذاكرته ولم يعد ليظهر له إلا حين يكون في حالة من الاسترخاء والراحة، وهو أمر لم يكن يحدث غالباً. كان ينساها تماماً لمدة أسبوعين، ثم يتذكرها بإجفالة كتلميذ نسي حفظ درسه. لم تنس هي فيل، لأنها كانت من الصنف الذي لا ينسى قط. ولكن جرى أن رجلاً آخر -وكان شاباً جذاباً بالفعل- قد قدم نفسه إلى السيدة لايتر؛ بينما كانت فرصة الزواج من فيل بعيدة إلى أقصى حد؛ ولم تعد رسائله مزضية؛ وكان هناك ضغط عائلي كبير بدأ يُمارس على الفتاة؛ وكان الشاب جديراً بالزواج من حيث الدخل. وفي النهاية تزوجت آغنس منه، وكتبت رسالة عاصفة هوجاء إلى فيل القابع في براري دارجيلينغ، وقالت إنها لن تعرف لحظة سعيدة واحدة طوال ما بقي من حياتها. وقد كانت تلك نبوءة صحيحة.

استلم فيل الرسالة واعتبر أنه تمت الإساءة إليه. لقد حدث ذلك بعد عامين من رحيله، ولكن بفضل تفكيره المتواصل بآغنس لايتر وتحديقه في صورتها وإطراء نفسه على أنه واحد من أكثر العشاق إخلاصاً في التاريخ، ومع انغماسه في العمل أكثر فأكثر مع مضي الوقت، فإنه تصور بالفعل أن الإساءة التي عومل بها كانت فادحة. جلس وكتب رسالة ختامية - رسالة مثيرة للشفقة من صنف «عالم لا نهاية له، آمين»؛ وقد شرح فيها كيف أنه سيبقى مخلصاً حتى أبد الآبدين، وأن جميع النساء متشابهات، وأنه سيخبئ قلبه الجريح، إلخ، إلخ. ولكن لو حدث في أي وقت في المستقبل، إلخ، إلخ. أن استطاعت الانتظار، إلخ، إلخ. دون أن تتغير عواطفها، إلخ، إلخ. وأن تعود إلى حبيبها القديم، إلخ، إلخ. وهكذا دواليك على ثمانية صفحات كتبت بأسطر مرصوصة.

من وجهة نظر فنية، كانت الرسالة شديدة الأناقة، ولكنها فظة أيضاً،

خاصة بالنسبة إلى من كان يعرف المشاعر الحقيقية لفيل -ليست تلك التي عبّر عنها خطياً- فقد كان من شأنه أن يدعوها بالعمل الدنيء والأناني لشخص دنيء وأناني وضعيف إلى أقصى حد. ولكن هذا الحكم لم يكن صحيحاً. دفع فيل أجرة البريد وبقي يحس بكل كلمة كتبها لمدة يومين ونصف يوم. كان ذلك آخر بصيص قبل أن ينطفئ النور نهائياً.

أحزنت تلك الرسالة آغنس لايتر، وقد بكت واحتفظت بها في مكتبها، وأصبحت زوجة لشخص آخر من أجل صالح أسرتها. وهذا أول واجبات كل بكر مسيحية.

تصرف فيل على ما يهوى، ولم يعد يفكر برسالته، باستثناء ما قد يفعله فنان باسكتش رُسم بدقة وأناقة. لم تكن تصرفاته سيئة، ولكنها لم تكن طيبة عموماً حتى قابل بالصدفة «دونمايا»، ابنة ضابط مفوض من نائب الملك يعمل في جيشنا الوطني. كان للفتاة أرومة «جبلية»، وكانت شأن النساء الجبليات، امرأة تعيش خلف الحجاب. أين قابلها فيل، أو كيف سمع بها أمران لا قيمة لهما. كانت فتاة طيبة ومليحة، وبأسلوبها الخاص فقد كانت ذكية وحكيمة؛ على الرغم من كونها بالطبع قاسية الطبع. لا بد أن نتذكر أن فيل كان يعيش على نحو مريح جداً، وهو لا ينكر على نفسه أي نوع من أنواع الرفاهية، ولا يوفر أي بنس. كان يشعر بالرضا عن نفسه وعن نواياه الحسنة، وقد تخلى عن جميع مراسليه الإنكليز الواحد إثر الآخر، وبدأ ينظر إلى الهند كوطن له. حدث هذا لبعض الرجال ولم يعودوا ذوي نفع فيما بعد. كان المناخ في المنطقة التي يعمل فيها جيداً، ولم يكن لديه أي سبب يدعوه إلى العودة إلى إنكلترا.

لقد فعل ما سبقه إليه الكثير من المزارعين - أي قرر أن يتزوج فتاة

جبلية ويستقر في الهند. كان في السابعة والعشرين آنئذ، وما تزال الحياة مديدة أمامه، ولكنه كان يفتقر إلى الروح التي تجعله يستمر حياً. لذلك تزوج دونمايا حسب طقوس الكنيسة الإنكليزية، وقال بعض زملائه من المزارعين إنه شخص أحمق، بينما قال البعض الآخر إنه رجل حكيم. كانت دونمايا فتاة مخلصة تماماً، وعلى الرغم من تبجيلها لرجل إنكليزي، فقد كانت تقوّم إلى حد معقول نقاط ضعف زوجها. راحت تدبر أموره برقة، وأصبحت خلال أقل من سنة، تقليداً معقولاً جداً لسيدة إنكليزية من حيث الملبس والتصرف. من المثير للفضول أن نفكر في أن الرجل الجبلي بعد تعليم قد يستمر حياة بطولها سيبقى رجلاً جبلياً؛ ولكن المرأة الجبلية يمكنها خلال ستة أشهر إتقان أساليب أخواتها الإنكليزيات. كان هناك ذات مرة امرأة عامل بسيط. ولكن هذه حكاية أخرى. كانت دونمايا تفضل الثياب ذات اللونين الأسود والأصفر، وتبدو ذات مظهر حسن بها.

في غضون ذلك، كانت رسالة فيل ما تزال في مكتب آغنس، وكانت تفكر بين الحين والآخر بفيل المسكين، الموطد العزم والكادح في عمله، القاطن بين ثعابين الكوبرا والنمور في دارجيلينغ، والذي يكد وهو يأمل عبثاً في أنها قد تعود إليه. كان زوجها رجلاً أفضل من فيل بعشرة أضعاف، باستثناء أنه كان يعاني من روماتيزم في القلب. بعد زواجهما بثلاث سنوات –وبعد أن جرب المكوث في مدينة «نيس» و«الجزائر» ليشفى من مرضه– مضى إلى بومباي حيث توفي هناك، وحرر آغنس من قيد الزواج. وبما أنها امرأة ورعة، فقد رأت في وفاته وفي المكان الذي حدثت فيه على أنهما تدخل من العناية الإلهية، وحين شفيت من الصدمة، أخرجت رسالة فيل التي تحوي «إلخ، إلخ» وعلامات القطع الكبيرة (–––) والصغيرة منها (–) وأعادت قراءتها،

ثم قبلتها مرات عديدة. لم يكن هناك في بومباي من يعرفها؛ وكان لديها الدخل الذي تركه زوجها وهو كبير، وكان فيل قريباً من متناولها هناك. كان الأمر غير ملائم وغير لائق بالطبع، ولكنها قررت، كما تفعل البطلات في الروايات، أن تجد حبيبها القديم، وأن تعرض عليه يدها في الزواج مع ثروتها، وأن تنفق معه ما تبقى من حياتها في بقعة بعيدة عن الأنفس غير المتعاطفة. مكثت شهرين في «فندق واتسون»، وهي تتأمل في هذا القرار، وكانت الصورة جميلة. ثم انطلقت بحثاً عن فيل غارون، المساعد في مزرعة للشاي والذي يحمل اسماً ليس صعباً على اللفظ.

***

وجدته. استغرق منها الأمر شهراً كاملاً، فلم تكن تلك المزرعة في مقاطعة دارجيلينغ على الإطلاق، بل أقرب إلى كانغرا. لم يكن فيل قد تغير كثيراً، وكانت دونمايا لطيفة جداً معها.

والآن، فإن الإثم والعار الاستثنائيين لهذا الأمر كله يتمثلان في أن فيل لا يستحق فعلاً أن يفكر فيه المرء مرتين، كان محبوباً من قبل دونمايا أكثر مما تحبه آغنس وهو الذي أفسد عليها حياتها كلها.

وأسوأ ما في الأمر، أن دونمايا كانت تحوله إلى رجل محترم؛ وسوف يُنقذ في النهاية من الهلاك عبر تعليمها له.

وهو أمر غير عادل بكل جلاء.

٥- فجر كاذب

في هذه الليلة يعرف الرب ما الأمر الذي سيتم إنقاذه، الأرض معذَّبة وضعيفة...

حبلى، قلقة ومفتوحة العينين؛ ونحن، الذين صُنعنا من تراب هذه الأرض، نرتعش من آلام أمنا.

•(في سجن)

لا يوجد رجل قد يعرف يوماً حقيقة هذه القصة بالضبط؛ على الرغم من أن النساء قد يهمسن أحياناً بها الواحدة للأخرى بعد حضور حفل راقص، وذلك حين يوضبن شعرهن فيرفعنه إلى أعلى استعداداً لليل، ويقارنّ بين لوائح الضحايا. لا يستطيع رجل بالطبع تقديم المساعدة في مثل هذه المهام. لذا فإن الحكاية يجب أن تروى من الخارج –في الظلام– وكلها أخطاء.

إياك ثم إياك أن تمتدح شقيقة أمام شقيقتها، على أمل أن يصل إطراؤك إلى الأذنين الملائمتين، وبذلك فإنك تمهد الطريق لنفسك فيما بعد. الشقيقات هن نساء أوّلاً، وشقيقات بعد ذلك؛ ولسوف تكتشف أنك تسبب الضرر لنفسك.

كان سومريز يعرف هذا حين قرر أن يخطب الآنسة كوبلي الكبرى. كان سومريز شخصاً غريب الأطوار، ويتميز بالقليل من الحسنات حسب ما يرى الرجال، على الرغم من شعبيته لدى النساء، وكان يتميز بغرور يكفي أعضاء مجلس نائب الملك بأجمعهم، ويتبقى القليل منه من أجل ضباط أركان القائد العام للجيش. كان مدنياً. وقد أبدت نساء كثيرات اهتماماً بسومريز، وربما بسبب أن سلوكه تجاههن كان مهيناً. لو ضربت مهراً على أنفه في بداية تعارفكما، فقد لا يحبك، ولكنه

سيبدي دائماً اهتماماً عميقاً بتحركاتك بعد ذلك. كانت الآنسة كوبلي الكبرى لطيفة وممتلئة الجسم وفاتنة وجميلة. أما الصغرى فلم تكن جميلة بقدر شقيقتها، وحسب رأي رجال يتجاهلون التلميح المذكور أعلاه، فإن أسلوبها كان منفّراً وغير جذاب. كان للفتاتين، عملياً، القدّ نفسه، وكان هناك شبه قوي بينهما من حيث المظهر والصوت؛ على الرغم من أنه ما كان هناك من يستطيع الشك لبرهة واحدة أيهما كانت الألطف بين الشقيقتين.

اتخذ سومريز قراراه ما أن وصلتا إلى «الموقع» من «بيهار»، على أن يتزوج مِن الكبرى. على الأقل، فنحن جميعاً كنا واثقين من أنه سيفعل ذلك، وهذا هو الأمر نفسه. كانت في الثانية والعشرين من العمر، وكان هو في الثالثة والثلاثين، وكان مجموع راتبه وتعويضاته ألفاً وأربعمائة روبية في الشهر. لذا كان هذا الزواج، كما تصورناه، جيداً من كل النواحي. كان اسمه سومريز، وكان طبعه العجلة كما قال أحد الرجال ذات مرة. وبعد أن كتب مسودة قراره، شكّل لجنة مختارة من شخص واحد لمعالجته، وقرر أن يتمهل. في لهجتنا المحلية غير الباعثة على السرور، فإن الفتاتين من آل كوبلي «كانتا تصطادان زوجياً». أي ما معناه أنك ما كنت قادراً على فعل أي شيء مع واحدة منهما دون الأخرى. كانتا شقيقتين محبتين جداً الواحدة للأخرى؛ ولكن هذه العاطفة المتبادلة كانت غير ملائمة أحياناً. كان سومريز يعرف كيف يوازن العلاقة معهما بحيث ما كان لأحد غيره أن يعرف لأي جانب كان قلبه يميل، على الرغم من أن كل شخص كان يخمن. كان يرافقهما في رحلات كثيرة على ظهور الخيل، كما يشاركهما في الرقص، ولكنه لم ينجح قط في فصل الواحدة منهما عن الأخرى لأي فترة من الزمن.

قالت النساء إن الفتاتين كانتا لا تفترقان بسبب الارتياب العميق،

فكل واحدة تخشى أن الأخرى ستختلس زوجاً محتملاً منها. ولكن هذا لا علاقة له برجل. كان سومريز صامتاً في كل الأحوال، وكان شديد الانتباه بقدر ما يستطيع كرجل أعمال، فقد كان لا يفشي شيئاً عن أعماله ولا عن لعبة البولو. ودون شك، كانت الفتاتان كلتاهما مغرمتين به.

مع اقتراب موعد حلول الفصل الحار، ولم يكن سومريز قد أعطى أي تلميح، وقالت النساء إنك كنت تستطيع أن ترى القلق في عيون الفتاتين... أنهما كانتا تبدوان متوترتين وقلقتين ونزقتين. الرجال عميان تماماً في هذه المسائل ما لم يكن في تكوينهم من صفات المرأة ما هو أكثر من صفات الرجل، وفي مثل هذه الحالة، فلا أهمية لما يقولونه أو يفكرون به. أنا أؤكد أن أيام شهر نيسان (أبريل) الحارة هي التي جعلت وجنات فتاتي آل كوبلي شاحبة. كان متوجباً إرسالهما إلى منطقة «الجبال» في وقت أسبق من العام. ليس هناك شخص – رجلاً كان أم امرأة– يشعر بأنه ملاك حين يقترب موسم الطقس الحار. كانت الشقيقة الصغرى تصبح أكثر سخرية إن لم نقل أكثر لذعاً، في تصرفاتها. كما كانت فتنة الفتاة الكبرى ترهقه. كان فيها شيء من الجهد والسعي.

كان «الموقع» الذي تجري فيه كل هذه الأمور، على الرغم من كونه ليس صغيراً، بعيداً عن خط السكة الحديد، ويعاني من نقص في الاهتمام. لم تكن فيه حدائق أو فرق موسيقية أو أماكن للتسلية واللهو تستحق الذكر، وكان يبعد مسرة يوم كامل عن «لاهور» حيث يمكن للمرء حضور حفل راقص. كان الناس ممتنين حتى للأشياء الصغيرة التي قد تثير اهتمامهم.

مع بداية شهر أيار (مايو)، وقبل الرحيل النهائي لأولئك الذين

يقضون الفصل الحار في «الجبال»، وحين كان الطقس شديد الحرارة ولم يكن هناك أكثر من عشرين شخصاً في «الموقع»، دعا سومريز إلى نزهة على ظهور الخيل في ضوء القمر عند قبر قديم يبعد ستة أميال، وهو قريب من سرير النهر. كانت نزهة أشبه بـ «سفينة نوح»؛ وكان لا بد من الترتيبات المعتادة كأن تكون المسافة بين كل زوجين من راكبي الخيل هي ربع ميل بسبب الغبار. وقد شارك في النزهة ستة أزواج بمن فيهم الوصيفات المصاحبات للفتيات. النزهات في ضوء القمر مفيدة عند نهاية الموسم بالضبط، قبل أن ترحل جميع الفتيات إلى «الجبال». وكانت هذه النزهات تؤدي إلى تفاهمات، ويتوجب التشجيع عليها من قبل الوصيفات المصاحبات، وخاصة أولئك اللواتي تكون فتياتهن هن الأجمل في ثياب الركوب. كنت أعرف إحدى الحالات المشابهة لهذه ذات مرة، ولكن هذه حكاية أخرى. لقد سميت تلك النزهة بـ «نزهة الفرقعة الكبرى»، لأن الجميع كانوا يعلمون أن سومريز سيطلب يد الآنسة كوبلي الكبرى؛ هذا وإلى جانب قصة حبه هذه، فقد كانت هناك قصة حب أخرى كان يمكن أن تؤدي إلى السعادة. كان الجو الاجتماعي مشحوناً وفي حاجة إلى انفراج.

التقينا عند أرض الاستعراضات في الساعة العاشرة: كان الليل شديد الحرارة. راحت الجياد تتعرق حتى وهي تمشي الهوينى، ولكن أي شيء كان أفضل من الجلوس بسكون في منازلنا المعتمة. حين انطلقنا تحت نور البدر كنا أربعة أزواج وثلاثي واحد وأنا. سار سومريز مع الآنستين كوبلي، وتسكعت أنا في مؤخرة الموكب وأنا أتساءل مع من سيعود سومريز إلى البيت. كان الجميع سعداء وراضين؛ ولكننا كنا نشعر جميعاً بأن هناك أموراً ستحدث. كان المسير بطيئاً، وكان قد حل منتصف الليل تقريباً قبل أن نصل إلى القبر القديم المواجه

لخزان الماء الخرب في الحدائق الذاوية حيث كنا سنتناول الطعام والشراب. تأخرت في الوصول؛ وقبل دخولي إلى الحديقة، شاهدت الأفق إلى الشمال وهو يحمل ريشة فاترة بلون داكن. ولكن ما كان أحد سيشكرني على إفساد مثل هذه التسلية التي تمثلها النزهة... كما أن عاصفة غبارية، على أي حال، ما كانت ستؤدي إلى ضرر كبير.

اجتمعنا عند خزان الماء. كان أحدهم قد جلب بانجو-وهي آلة موسيقية شديدة الإثارة للعواطف- وقام ثلاثة أو أربعة منا بالغناء. لا يجب عليك أن تضحك من هذا. إن تسلياتنا في تلك «المواقع» التي لا تقع على خط السكة الحديد قليلة جداً بالفعل. ثم تبادلنا الأحاديث ضمن مجموعات أو الواحد مع الآخر، ونحن نضطجع تحت الأشجار، والورود التي سفعتها الشمس تسقط تويجاتها على أقدامنا، حتى أصبح العشاء جاهزاً. وكان عشاء جميلاً، بارداً ومثلجاً كما تتمناه أن يكون. وقد استغرق منا العشاء وقتاً طويلاً.

كنت قد شعرت أن الهواء يزداد سخونة بالتدريج؛ ولكن لم يبد على أي منا أنه لاحظ ذلك حتى اختفى القمر وراحت ريح ساخنة ملتهبة تضرب أشجار البرتقال بصوت أشبه بهدير البحر. وقبل أن نعرف أين كنا، كانت العاصفة الغبارية قد أصبحت فوقنا، وأصبح كل شيء عبارة عن ظلام يجأر ويدوّم. وهكذا رحنا نتحسس طريقنا نحو أشجار البرتقال حيث كانت الجياد قد ربطت أعنتها، وانتظرنا حتى ينتهي هبوب العاصفة. ثم أن النور الخفيف الذي كان قد تخلف قد اختفى، وما عدتَ تستطيع أن ترى يدك أمام وجهك. كان الهواء ثقيلاً بالغبار والرمل القادمين من سرير النهر فراحا يملآن أحذيتنا وجيوبنا، وينجرفان إلى أعناقنا، ويغطيان جفوننا وشواربنا. كانت تلك أسوأ عاصفة غبارية شهدها ذلك العام. كنا قد تجمعنا معاً إلى القرب من

الجياد المرتعدة، والرعد يهدر من فوقنا، والبرق ينبجس مثل الماء المندفع من سدّ ذي بوابة في آن واحد. لم يكن هناك خطر، بالطبع، ما لم تقم الجياد بالهروب. كنت أقف ورأسي في اتجاه الريح، ويداي فوق فمي، وأنا أسمع الأشجار تضرب الواحدة الأخرى. لم أستطع أن أرى من كان إلى جانبي حتى وصل وميض البرق. ثم اكتشفت أني كنت قريباً جداً من سومريز والآنسة كوبلي الكبرى، وحصاني أمامي تماماً. وقد استطعت تمييز الآنسة كوبلي الكبرى لأنها كانت تضع منديلاً من حول خوذتها، بينما لم تكن الصغرى قد فعلت ذلك. لقد تغلغلت كل الكهرباء التي كانت في الجو إلى جسدي، وكنت أرتجف وأستشعر وخزاً خفيفاً من رأسيَ إلى قدمي... تماماً كما ترتجف نبتة الشعير تحت وخز حبات المطر. كانت عاصفة كبرى. كانت الريح تبدو وكأنها تنقر الأرض وتقلّبها في أكوام كبيرة؛ وكان الحرّ يخرج من الأرض مثل حرّ يوم القيامة.

بدأت العاصفة تخمد قليلاً بعد نصف الساعة الأولى، وسمعت صوتاً صغيراً يائساً قريباً من أذني يقول مخاطباً القائل نفسه بهدوء وروية، وكأن روحاً ضائعة كانت تهوّم مع الريح: «يا إلهي!» ثم تعثرت الآنسة كوبلي الصغرى بين ذراعيّ وهي تقول: «أين حصاني؟ أحضروا لي حصاني. أريد أن أذهب إلى البيت. أريد أن أذهب إلى البيت. خذوني إلى البيت».

ظننتُ أن البرق والعتمة الداكنة قد بثّا الرعب في قلبها؛ لذا قلت لها إنه لم يعد هناك من خطر، ولكن عليها أن تنتظر حتى تنتهي العاصفة. أجابت: «ليس الأمر ما تلمح أنت إليه! أريد أن أذهب إلى بيتي! أوه، خذني بعيداً عن هذا المكان!»

قلت إنها لن تستطيع أن تذهب حتى يعود النور؛ ولكني شعرت بها وهي تمرّ بي وتتابع السير. كان الظلام شديداً بحيث يتعذر أن يرى

المرء أي شيء. ثم انشقت السماء كلها بوميض هائل، وكأن نهاية العالم كانت وشيكة، وزعقت النساء جميعهن.

ومباشرة بعد هذا شعرت بيد رجل على كتفي، وسمعت سومريز يصرخ في أذني. عبر قعقعة الأشجار وعواء الريح لم أسمع كلماته على الفور، ولكني سمعته أخيراً يقول: «لقد طلبت يد الفتاة الأخرى بالخطأ! ما الذي سأفعله؟» لم يكن لدى سومريز سبب يدعوه إلى أن يسرّ لي بهذا الكلام. لم أكن من أصدقائه، ولم أصبح صديقاً له حتى الوقت الحاضر. ولكنني أتصور أننا كلانا لم نكن في حالة طبيعية. كان هو يرتجف من شدة الاستثارة، وكنت أنا أشعر بشيء غريب يطغى على جسدي كله بسبب الكهرباء في الجو. لم أستطع أن أفكر في أي شيء أقوله له باستثناء: «إنها لحماقة كبيرة منك أن تطلب يد فتاة في عاصفة رملية». ولكني لم أستطع أن أرى أي فائدة ترجى من هذا الكلام لإصلاح الخطأ.

ثم صرخ سومريز: «اين إيديث؟ إيديث كوبلي؟» كانت إيديث هي الشقيقة الصغرى. أجبته وقد اعترتني المفاجأة: «ما الذي تريده منها؟» وفي الدقيقتين اللتين تلتا ذلك فقد كنا كلانا نصرخ الواحد في وجه الآخر، شأن شخصين مصابين بالجنون... كان هو يقسم بأنه كان يريد أن يطلب يد الشقيقة الصغرى منذ البداية، وأنا أقول له -حتى بحّ صوتي- إنه قد ارتكب خطأً ما دون شك! لا أستطيع تفسير هذا كله إلا أننا كلانا لم نكن في حالة طبيعية. بدا كل شيء لي ككابوس... من ضرب الجياد الأرض بقوائمها بقوة في العتمة إلى قيام سومريز بإبلاغي عن حكاية حبه لإيديث كوبلي منذ البداية. كان ما يزال يمسك بكتفي بقوة ويرجوني أن أخبره أين كانت إيديث كوبلي، حين هدأت العاصفة مرة أخرى وكان هناك بعض النور مجدداً، وشاهدنا غيمة من

الغبار تتشكل فوق السهل أمامنا. وهكذا عرفنا أن الأسوأ قد انقضى. كان القمر قد هبط نحو الأفق، ولم يتبق سوى وميض الفجر الكاذب الذي يأتي قبل ساعة من الفجر الحقيقي. ولكن النور كان واهياً جداً، وكانت غيمة داكنة تجأر كثور. وقد تساءلتُ أين ذهبت يا ترى إيديث كوبلي؟ وبينما كنت أتساءل شاهدت ثلاثة أشياء معاً: أولاً وجه مود كوبلي قادماً وهو يبتسم خارجاً من العتمة ويتحرك باتجاه سومريز الذي كان واقفاً قربي. سمعت صوت الفتاة وهي تهمس: «جورج»، وتدس ذراعها عبر الذراع التي لم تكن تمسك بكتفي، ورأيت النظرة التي على وجهها والتي لا تحدث سوى مرة واحدة أو مرتين خلال الحياة كلها... حين تكون المرأة في منتهى السعادة والجو مترع بعزف الأبواق والنيران ذات الألوان الجميلة، بينما تتحول الأرض إلى غيمة لأنها تُحِب ولأنها تُحَب. وفي الوقت نفسه، شاهدت وجه سومريز حين سمع صوت مود كوبلي، وعلى مسافة خمسين ياردة من أجمة من أشجار البرتقال، شاهدت بزة ركوب نسائية بنية اللون من طراز هولندي تمتطي حصاناً.

ربما كانت حالتي من الاستثارة المبالغ فيها هي التي جعلتني جاهزاً للتدخل فيما لا يخصني. كان سومريز يتحرك باتجاه بزة الركوب؛ ولكني دفعته إلى الخلف وقلت: «توقف هنا واشرح لي ما يجري. سأجلبها عائدة إلى هنا!» وهنا عدوت للوصول إلى حصاني. كانت لديّ فكرة غير ضرورية إطلاقاً بأن كل شيء يجب أن يتم على نحو لائق وملائم، وأن اهتمام سومريز الأساسي كان أن يمسح النظرة السعيدة من وجه مود كوبلي. خلال ذلك الحين كنتُ أمسك بعنان الجواد وأتساءل كيف سيفعل ذلك.

قدت الجواد خبباً خلف إيديث كوبلي، مفكراً في إعادتها ببطء

متعذراً بسبب ما أو بآخر. ولكنها بادرت إلى الإسراع في قيادتها للحصان ما أن شاهدتني، واضطررت إلى اللحاق بها بجدية. صاحت وهي تلتفت إليّ: «ابتعد عني! أنا ذاهبة إلى البيت. أوه، ابتعد عني!» وكررت ذلك مرتين أو ثلاث. ولكن مهمتي كانت أن ألحق بها أولاً ثم أن أجادلها في الأمر. كان اللحاق بها صعباً. فالأرض كانت وعرة جداً، وكنا بين الحين والآخر نندفع عبر «شياطين الغبار» المدومة الخانقة في حواف العاصفة المحوّمة. كانت تهبّ ريح حارة حارقة كانت تحمل رائحة أتون آجري بغيضة معها؛ وعبر النور الخافت وشياطين الغبار، عبر ذلك السهل المقفر، كانت بزة الركوب البنية اللون والهولندية الطراز ترسل بصيصاً فوق ذلك الجواد الرمادي. اتجهتْ نحو «الموقع» في البداية. ثم التفتْ واتجهتْ نحو النهر عبر أحواض من أعشاب الدغل المحترقة، واضطرتْ إلى الانحناء في السرج. وبدم بارد ما كنت لأحلم بعبور مثل هذه الأراضي ليلاً، ولكن بدا الأمر صحيحاً وطبيعياً مع البرق الذي كان يطقطق من فوق، مع ريح كريهة لها رائحة «جهنم» في منخري. رحتُ ألحق بها وأصرخ، وكانت تنحني وتسوط جوادها، ثم وصلت عواقب العاصفة الرملية وأدركتنا كلينا، ودفعتنا باتجاه الريح كقصاصتين من ورق.

لا أدري كم كانت المسافة التي قطعناها؛ ولكن بدت قرقعة حوافر الجوادين وزمجرة الريح وسباق القمر الأحمر الدموي اللون عبر السديم الأصفر وكأنها استمرت أعواماً بحالها، وكنت أسبح في عرقي من خوذتي إلى طماقي حين تعثر الجواد الرمادي، ثم نهض وتوقف في مكانه وقد أصابه العرج. كان حصاني قد أصيب بالإنهاك تماماً. كانت إيديث كوبلي حاسرة الرأس وقد غطاها الغبار وتبكي بمرارة. قالت: «لم لا تستطيع أن تتركني بحالي؟ أردت فقط أن أبتعد وأذهب إلى

البيت؟ أوه، من فضلك، اسمح لي بالذهاب!»

«عليك أن تعودي معي يا آنسة كوبلي. سومريز لديه شيء ما ليبلغه لك».

كان أسلوبي في صياغة الخبر يتصف بالحماقة؛ ولكني ما كنت أعرف الآنسة كوبلي إلا لماماً؛ وعلى الرغم من أني كنت ألعب لعبة «العناية الإلهية» على حساب جوادي، إلا أني لم أستطع أن أخبرها بكلمات كثيرة ما قاله سومريز لي. لقد فكرت في أنه سيكون قادراً أكثر مني على فعل ذلك بنفسه. وقد تلاشت كل ادعاءاتها بأنها كانت مرهقة وتريد الذهاب إلى البيت، وراحت تتهزهز وهي جالسة على السرج وتبكي، والريح الحارة تعصف بشعرها الأسود باتجاه الريح. ولن أكرر ما قالته، لأنها كانت متوترة الأعصاب إلى حد مطلق.

كانت هذه هي الآنسة كوبلي المتهكمة، وأنا، الشخص الغريب بالنسبة إليها تماماً، وكنت أحاول أن أقول لها أن سومريز يحبها، وأن عليها أن تعود لتسمعه وهو يقول ذلك. أعتقد أني استطعت أن أفهمها الأمر، لأنها استجمعت نفسها وجوادها وجعلته يسير وهو يعرج نوعاً ما، وانطلقنا متجهين نحو القبر القديم، بينما كانت العاصفة تهبط باتجاه «أومبالا» وهي ترعد، وهطل علينا القليل من حبات المطر الدافئ الكبيرة.

اكتشفت أنها كانت تقف قريباً من سومريز حين طلب يد شقيقتها، وأنها أرادت أن تذهب إلى البيت لتبكي في سلام، كما يتوجب على فتاة إنكليزية. جففت دموعها بمنديل جيبها ونحن نمضي في طريقنا، وراحت تثرثر معي وقد انتابتها نوبة من خفة القلب والهيستريا. وقد كان هذا أمراً غير طبيعي تماماً؛ ومع ذلك، فقد بدا لي معقولاً في ذلك الحين وملائماً. كان العالم كله عبارة عن الآنستين كوبلي وسومريز وأنا فحسب، وقد حاصرنا البرق والظلام؛ وبدا لي أن الدليل الموجه في

ذلك العالم المضلل كان يقع بين يديَ أنا.

حين عدنا إلى القبر القديم في السكون العميق الخامد الذي تبع العاصفة، كان الفجر آخذاً بالبزوغ، ولم يكن أي شخص قد رحل. كانوا ينتظرون عودتنا. وسومريز على الأخص. كان وجهه أبيض اللون وكئيباً. ولدى وصولنا، أي الآنسة كوبلي وأنا، ونحن على جوادينا الأعرجين، تقدم هو منا، وحين ساعدها على الترجل من سرجها، قبّلها أمام جميع الحاضرين. كان ذلك أشبه بمشهد من مسرحية، وكان التشابه قد تعزز بكل ذلك البياض الغباري، والرجال والنساء الذين يبدون أشبه بالأشباح تحت أشجار البرتقال وهم يصفقون بأيديهم -وكأنهم يشاهدون مسرحية- علامة على موافقتهم على اختيار سومريز. لم يسبق لي أن شاهدت في حياتي أي شيء لا علاقة له بالإنكليز إلى هذا الحد.

وأخيراً، قال سومريز إن علينا جميعاً أن نذهب إلى بيوتنا أو أن سكان «الموقع» سيأتون للبحث عنا، وهل لي أنا أن أتلطف فأرافق مود كوبلي إلى بيتها؟ قلت: «لا شيء يمكنه أن يمنحني سروراً أكثر من هذا».

وهكذا شكّلنا ستة أزواج، وعدنا اثنين اثنين؛ وكان سومريز يمشي إلى جانب إيديث كوبلي التي كانت تركب حصانه هو. لم تكلمني مود كوبلي إطلاقاً.

كان الجو قد صفا؛ وبالتدريج، ومع بزوغ الشمس، شعرت أننا كنا نعود مرة أخرى لنكون رجالاً ونساء عاديين، وأن «نزهة الفرقعة الكبرى» كانت شيئاً نادراً ولا علاقة له بالدنيا... ولن يحدث مرة أخرى. لقد رحل مع العاصفة الرملية والوخز في الهواء الحار.

شعرت بالتعب والعرج، وكنت خجلاً من نفسي وأنا أدخل إلى بيتي لأستحم وأنال بعض النوم.

هناك نسخة أخرى لهذه الحكاية روتها امرأة، ولكنها لن تُكتب أبداً... ما لم تقم مود كوبلي بالاهتمام بذلك ومحاولة كتابتها.

٦- أسهم كيوبيد

كان يا ما كان أن أقامت في سيملا فتاة فائقة الجمال، ابنة قاضي مقاطعة فقير إنما شريف. وكانت هي فتاة طيبة، إنما لم تكن تفتقر إلى معرفة مدى سلطة جمالها وكيف تستخدمها. كانت أمها شديدة القلق على مستقبل ابنتها، كما يجدر بكل الأمهات الصالحات.

وحين يكون رجل ما يشغل منصب مفوض وأن يكون عازباً، ويحق له كذلك أن يزين ملابسه بمجوهرات بحجم كعكة المربى مشغولة بالذهب والمينا، وأن يدخل الأبواب قبل أي شخص آخر باستثناء عضو مجلس أو نائب حاكم أو نائب الملك، فهو أهل لأن يكون زوجاً مرغوباً. على الأقل، هذا ما تقوله النساء. وكان هناك مفوض في سيملا في تلك الأيام يتصف بكل ما سبق ذكره من ميزات. كان رجلاً قبيحاً - أقبح رجل في آسيا، باستثناء شخصين آخرين. كان وجهه من النوع الذي يحلم به المرء ويحاول أن ينقشه على رأس غليون فيما بعد. كان اسمه ساغوت... بار -ساغوت... أنثوني بار- ساغوت وستة أحرف تتبع ذلك(3). من حيث قدرته على الإدارة فقد كان واحداً من أفضل ما لدى حكومة الهند من موظفين. أما اجتماعياً، فكان أشبه بغوريلا متملقة ومداهنة.

وحين كان يبدي اهتماماً بالآنسة بيغتون، أعتقد أن السيدة بيغتون كانت تبكي من الفرح على هذه المكافأة التي أنعمت بها عليها العناية الإلهية في سنين كهولتها.

أما السيد بيغتون فكان يبقى صامتاً. كان رجلاً سهل القياد.

والمفوض شخص غني جداً. كان راتبه يتجاوز أحلام الجشعين... فقد كان ضخماً إلى حد أنه كان قادراً على أن يوفر ويصرف بأسلوب

يخزي عضو مجلس تقريباً. إن معظم المفوضين بخلاء؛ ولكن بار-ساغوت كان استثناء من هذه القاعدة. كان ينفق كعضو من أعضاء أسرة مالكة؛ كما كان يركب أفضل الجياد ويقيم حفلات للرقص. لقد كان ذا نفوذ في البلاد؛ وكان يتصرف كصاحب نفوذ.

فلتعتبروا أن كل ما أكتب عنه قد جرى في تلك الفترة السابقة على التأريخ في الهند البريطانية. قد يتذكر بعض الأشخاص السنوات التي سبقت وجود لعبة التنس في الملاعب المعشبة حين كنا جميعنا نلعب الكروكيت. كانت هناك مواسم قبل ذلك، لو صدقتموني، حين لم تكن حتى لعبة الكروكيت قد اخترعت بعد، وكان الرمي بالسهام والقوس -الذي أعيد إحياؤه في إنكلترا في عام (1844)- وباء عاماً شأن التنس الآن. كان الناس يتكلمون بلهجة المثقفين عن «السيطرة» و«الخسارة» و«النصب التي تعد كأهداف» والأقواس المنعكسة» و«الأقواس من زنة 56 باونداً»، و«الأقواس المدعومة» أو «الأقواس المصنوعة من خشب الطقسوس الرديء» كما نتحدث الآن عن «المسابقات»، و«الوابل من التسديدات» و«الضربات الماحقة» و«الضربات المرتدة» و«المضارب من وزن 16 أونصة».

كانت الآنسة بيغتون ترمي السهام على نحو رائع إلى مسافة أبعد عما ترميه السيدات عادة -أي مسافة 60 ياردة- وكان معترفاً بها على أنها أفضل رامية للسهام بين السيدات في سيملا. كان الرجال يسمونها: «ديانا تارا - ديفي»(4).

أبدى بار - ساغوت اهتماماً كبيراً بها؛ وكما سبق وقلت، فقد كان قلب أمها ينتشي فرحاً نتيجة لذلك. أما كيتي بيغتون فكانت تعامل الأمر على نحو أكثر هدوءاً. كان أمراً باعثاً على السرور أن يقوم مفوض تلحق باسمه ستة حروف بإبداء الاهتمام بها دون غيرها من

الفتيات اللواتي شعرن بالغيرة. ولكن لم يكن هناك إنكار لحقيقة أن بار- ساغوت كان قبيحاً إلى حد استثنائي؛ وكانت جميع محاولاته الرامية إلى تحسين مظهره تجعله يبدو أكثر غرابة. ولم يكن قد لُقب بـ «اللنغور» -التي تعني القرد الرمادي- عبثاً. فكرت كيتي في أنه كان أمراً باعثاً على السرور أن يكون معجباً بها إلى ذلك الحد، ولكن الأفضل الهروب منه والركوب مع «كابون» الذي تعوزه الكياسة -وهو فارس وأحد أعضاء فوج الفرسان في أومبالا- شاب ذو وجه وسيم وفقير. كانت كيتي تحب كابون كثيراً. وهو الذي كان يعبر لها دائماً عن أنه مغرم بها جداً. وقد كان شاباً صادقاً. وهكذا كانت كيتي تهرب الآن من أفعال التودد الفخمة التي كان يقوم بها بار- ساغوت إلى رفقة كابون الشاب، وقد وبختها أمها نتيجة لذلك. قالت: «ولكن يا أمي، السيد ساغوت شخص شديد...شديد... إنه شخص قبيح إلى حد مرعب، كما تعلمين!»

قالت السيدة بيغتون بورع: «يا إلهي، لا يمكننا أن نكون إلا كما خلقنا الإله كليّ القدرة. وإلى جانب ذلك، فأنت سوف تسبقين حتى أمك من حيث المقام (لو تزوجت منه)، كما تعلمين، أليس كذلك؟ فكري في ذلك وكوني عاقلة».

ثم رفعت كيتي ذقنها الصغيرة وتلفظت بأشياء وقحة عن المقام والمفوضين والزواج. حكّ السيد بيغتون رأسه؛ فقد كان رجلاً سهل القياد.

في وقت متأخر من الموسم، حين حكم بأن الوقت ملائم، تدبر بار- ساغوت خطة جلبت له مديحاً فائقاً لسلطاته الإدارية. لقد قرر تنظيم مسابقة رمي بالسهام للسيدات، على أن تكون الجائزة سواراً ثميناً جداً ومرصعاً بالماس. وقد نظم شروطه بمهارة، ولاحظ الجميع أن

السوار كان هدية للآنسة بيغتون. وكان قبول الهدية سيحمل معه يد وقلب المفوض بار - ساغوت. وكانت الشروط هي دورة تسمى «جولة لينارد» -ست وثلاثون رمية ضمن مسافة ستين ياردة- وفق أحكام «جمعية سيملا لعشاق الرماية بالسهام».

تمت دعوة سكان سيملا جميعاً. وضعت موائد شاي مرتبة على نحو جميل تحت أشجار الأرز في أنانديل، حيث تقع الآن «القاعدة الكبرى». وجلس سوار الألماس في علبة مخملية زرقاء، وحيداً في مجده، وهو يغمز تحت الشمس. كانت الآنسة بيغتون متلهفة -متلهفة جداً تقريباً- على خوض المنافسة. في عصر اليوم الموعود اتجه سكان سيملا جميعاً إلى أنانديل لمشاهدة «حُكم باريس»(5) وقد انقلب أعلاه أسفله. ركبت كيتي مع كابون الشاب، وكان من السهل ملاحظة أن الشاب كان مشوش العقل. ويجب أن نعتبره بريئاً من كل ما جرى لاحقاً. كانت كيتي شاحبة وعصبية المزاج، ونظرت مطولاً إلى السوار. كان بار - ساغوت يرتدي ملابس جميلة، وبدا أكثر عصبية من كيتي، وأقبح من أي وقت مضى.

ابتسمت السيدة بيغتون بتعاطف، كما يلائم الأم المحتملة لزوجة المفوض المستقبلية، وبدأ رمي السهام. كان العالم كله واقفاً في نصف دائرة بينما راحت السيدات تخرجن الواحدة بعد الأخرى.

لا شيء متعب بقدر مسابقة في رمي السهام. بدأن بالرمي، ورمين، وتابعن الرمي، حتى غادرت الشمس الوادي، وراحت نسائم صغيرة تهب في أشجار السرو، وانتظر الناس أن ترمي الآنسة بيغتون وتربح. كان كابون عند أحد قرني نصف الدائرة التي تحيط بالمتسابقات، وكان بار- ساغوت عند القرن الآخر. كانت الآنسة بيغتون في آخر القائمة. كان مستوى التهديف ضعيفاً، وكان السوار، مع المفوض بار- ساغوت،

ملك يدها بالتأكيد.

قام المفوض بتحضير قوسها بيديه المقدستين. خطت هي نحو الأمام ونظرت إلى السوار، وكان أول أسهمها دقيقاً تماماً في إصابة قلب الهدف الذهبي ونالت تسع نقاط.

شحب وجه كابون الشاب وهو واقف إلى جهة اليسار، ودفع شيطانه بار – ساغوت إلى الابتسام. كانت الجياد معتادة على الإجفال كلما ابتسم بار – ساغوت. شاهدت كيتي تلك الابتسامة. نظرت إلى جهة اليسار، وأرسلت إلى كابون إيماءة غير ممكن ملاحظتها، وتابعت الرمي.

أتمنى لو أستطيع وصف المشهد الذي تبع ذلك. كان خارجاً عن المعتاد وغير ملائم إلى أبعد حد. راحت الآنسة كيتي تصوب أسهمها بكل تؤدة حتى يرى كل شخص ما كانت تفعله. كانت رامية ماهرة إلى حد الكمال، وكان قوسها البلغ وزنه 46 باونداً يلائمها إلى أبعد حد. راحت تصيب الأرجل الخشبية للهدف بعناية كبيرة أربع مرات متتالية. أصابت الجزء العلوي الخشبي من الهدف مرة واحدة، ونظرت جميع السيدات الواحدة إلى الأخرى. ثم بدأت تسدد إلى اللون الأبيض الذي تكسب إذا أصبته نقطة واحدة فقط. رمت الأبيض بخمسة سهام. كان رميها رائعاً؛ ولكن مهمتها كانت في إصابة الأهداف الذهبية وربح السوار، ولذلك أصبح لون بار – ساغوت أخضر رقيقاً بلون عشب الماء. وفي المرحلة اللاحقة، رمت أسهمها فوق الهدف مرتين، ثم إلى اليسار بعيداً عنه مرتين –ودائماً بالتؤدة نفسها– بينما ساد صمت بارد على الحضور، وأخرجت السيدة بيغتون منديلها. ثم أصابت كيتي الأرض أمام الهدف، وكسرت عدة أسهم. ثم أصابت اللون الأحمر –وهذا حقق لها سبع نقاط– وذلك لتظهر فحسب أنها تستطيع أن تصيب الهدف لو

شاءت، وأنهت أداءها المدهش بإصابة دعائم الهدف. وها هي علاماتها كما سُجلت:

الآنسة بيغتون: الذهبي 1 والأحمر 1 والأزرق 0 والأسود 0 والأبيض 5 والإجمالي 7

والعلامة الإجمالية: 21

بدا على بار- ساغوت وكأن رؤوس آخر سهام قد أصابت ساقيه هو بدلاً عن ساقي الهدف، وقد حطم الصمت الصوت الصغير الصادر عن الأنف والمتقلب لفتاة مراهقة وهي تقول بصوت منتصر حاد: «إذاً، أنا التي انتصرت!»

بذلت السيدة بيغتون جهدها حتى تتحمل ما جرى؛ ولكنها بكت تحت أنظار الحاضرين. ما كان يمكن لأي تدريب أن يساعدها على أن تتحمل مثل خيبة الرجاء هذه. فكّت كيتي قوسها بحركة شريرة، وعادت إلى مكانها، بينما كان بار- ساغوت يحاول التظاهر بأنه استمتع بوضع السوار على رسغ الفتاة ذات الصوت، وكان رسغها نحيلاً وأحمر اللون. كان المشهد مربكاً... مربكاً جداً. حاول كل شخص أن يغادر ضمن مجموعة وتركوا كيتي وحيدة تحت رحمة أمها.

ولكن كابون اصطحبها بعيداً، وما تبقى من الحكاية لا يستحق أن نطبعه هنا.

---

(3)-هذه الأحرف هي الأحرف الأولى من ألقابه. (المترجم)

(4)-تارا- ديفي: آلهة هندية. (المترجم)

(5)–حكم باريس: في الإلياذة تعرض أثينا على الأمير باريس الطروادي الانتصار في الحرب ولكنه يرفض ويفضل الانتصار في الحب. (المترجم)

٧- الرجل الآخر

حين كان كوكب الأرض مريضاً والسماوات رمادية

والغابات متعفنة من المطر

ركب «الرجل الميت» حصانه خلال اليوم الخريفي

ليزور حبيبته مجدداً.

•(أغنية قديمة)

في ذلك العهد البعيد (أي السبعينات من القرن الماضي)، وقبل أن يشيدوا أياً من المكاتب العمومية في سيملا، والطريق العريضة، كانت «جاكو» الضخمة تعيش في كوخ ضيق من أكواخ وزارة الأشغال العامة، فجعل والداها «الآنسة غوري» هذه تتزوج من الكولونيل شرايدرلينغ. ما كان عمره يتجاوز عمرها بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً. وبما أنه كان يعتاش على مائتي روبية في الشهر ويملك مالاً خاصاً به، فقد كان غنياً. كان ينتمي إلى أسرة جيدة، ويعاني حين يكون الطقس بارداً من علة في رئتيه. في الطقس الحار كان يعاني من السكتة الناجمة عن شدة الحر، ولكنها لم تكن تقتله تماماً.

عليكم أن تفهموا أني لا ألوم شرايدرلينغ. فقد كان زوجاً طيباً حسب وجهة نظره، ولم يكن غضبه يثور إلا حين يتم تمريضه: وكان ذلك يحدث لمدة سبعة عشر يوماً من كل شهر. وكان كريماً تقريباً مع زوجته فيما يخص المسائل المالية، وكان يعتبر ذلك تنازلاً منه. ومع ذلك، لم تكن السيدة شرايدرلينغ سعيدة. لقد زوجوها وهي لا تكاد تبلغ العشرين من العمر وكانت قد منحت قلبها الصغير المسكين إلى رجل آخر لم يكن يملك أي مال أو أي حظوظ تدل على النجاح. ولم

يكن حتى وسيماً في مظهره؛ وأظن أنه كان موظفاً في المفوضية أو في مديرية النقل. ولكن وعلى الرغم من جميع هذه الأمور، فقد كانت تحبه إلى أبعد حد. وكان هناك نوع من الخطوبة قد انعقدت بينهما وذلك حين ظهر شرايدرلينغ وقال للسيدة غوري إنه يرغب في الزواج من ابنتها. عندها تم فسخ الخطوبة الأخرى، فقد تم جرفها بكل تلك الدموع الغزيرة التي ذرفتها السيدة غوري، فقد كانت تلك السيدة تحكم أسرتها بقوة الدموع التي تذرفها كلما صادفت عصياناً ضد سلطتها وافتقاراً إلى التبجيل الذي تستحقه في شيخوختها. لم تكن الابنة تحذو حذو أمها. فهي لم تكن تبكي مطلقاً. ولم تبك حتى في يوم زفافها.

تحمل «الرجل الآخر» خسارته بهدوء، وقد قام بنقل مكان عمله إلى أسوأ «محطة» أمكنه أن يجدها. ربما سيمنحه الطقس هناك بعض العزاء. راح يعاني من حمى متقطعة، وربما جعله هذا يتلهى عن علته الأخرى. كان قلبه ضعيفاً أيضاً؛ حباً ومرضاً. كان أحد صماماته عليلاً وجعلته الحمى في حال أسوأ. وقد ظهر هذا على نحو أوضح لاحقاً.

انقضى الكثير من الشهور ومرضت السيدة شرايدرلينغ. لم يهزل جسدها كما يحدث للسيدات في كتب الحكايات، ولكن بدا عليها وكأنها تصاب بعدوى كل صنف من أصناف المرض مما كان معروفاً في أي «موقع»، من الحمى البسيطة فصاعداً. كان حسنها عادياً في أفضل أيامها، ولكن الأمراض جعلتها قبيحة. هذا ما كان شرايدرلينغ يقوله. كان يتباهى بصراحته.

حين لم تعد جميلة، فقد ترك لها حرية التصرف كما تشاء، وعاد إلى عرين أيام عزوبيته. اعتادت هي أن تخب على فرسها في أرجاء «سيملا مول» وقد بدا عليها البؤس، وهي ترتدي قبعة رمادية من

طراز «تراي» على مؤخرة رأسها، وتمتطي سرجاً رديئاً إلى حد يسبب الصدمة. لم يكن شرايدرلينغ كريماً فيما يخص الفرس. قال إن أي سرج سيلائم امرأة فائقة العصبية شأن السيدة شرايدرلينغ. لم يُطلب منها أن تشاركه في الرقص لأنها لم تكن تجيد الرقص. وقد كانت شديدة الفتور والإملال حتى أن صندوق بريدها ما كانت تصله أي رسائل إلا في حالات نادرة جداً. قال شرايدرلينغ إنه لو عرف أنها ستتحول إلى خيال مآتة (فزّاعة) بعد الزواج لما كان سيقترن بها قط. وكان يتباهى بصراحته دائماً شرايدرلينغ هذا.

تركها في سيملا ذات مرة في شهر آب (أغسطس)، ومضى لينضم إلى فوجه. عندها انتعشت قليلاً ولكنها لم تسترد محاسنها إطلاقاً. وقد اكتشفتُ في النادي أن «الرجل الآخر» كان قادماً وهو في حالة من المرض الشديد على أمل الشفاء. كادت الحمى وصمامات القلب تقتله. وهي كانت تعرف ذلك أيضاً، وكانت تعرف – متى سيصل. أفترضُ أنه كتب لها يبلغها بذلك. لم يكونا قد شاهدا أحدهما الآخر منذ ما قبل زفافها بشهر. وهنا يأتي ذلك الجزء الكريه من الحكاية.

أبقتني زيارة متأخرة في «فندق دفدل» حتى الغسق ذات ليلة. كانت السيدة شرايدرلينغ تذرع المول جيئة وذهاباً بخطى سريعة طوال فترة ما بعد الظهر تحت المطر. وبينما كنتُ أمر بـ «كارترود»، عبرت إلى القرب مني عربة، وكانت فرسي المرهقة من الوقوف لفترة طويلة، قد انطلقت تخب مسرعة. على الدرب الهابط إلى «مكتب استئجار العربات»، كانت السيدة شرايدرلينغ تنتظر العربة، والماء يقطر من رأسها إلى قدميها. انعطفتُ صاعداً التلة فالعربة لم تكن أمراً يخصني، وعندها بالضبط بدأت هي بالصراخ. عدت أدرجي في الحال ورأيت، تحت مصابيح «مكتب استئجار العربات»، السيدة شرايدرلينغ وهي

تركع فوق الطريق المبلل قرب المقعد الخلفي للعربة التي وصلت للتو، وهي تصرخ على نحو شنيع. ثم سقطت أرضاً على وجهها في الوحل عندما وصلت إليها.

كان «الرجل الآخر» جالساً في المقعد الخلفي، باستقامة وثبات، وإحدى يديه على الدعامة العمودية للظلة والماء يتصبب من قبعته وشاربيه: كان ميتاً. لقد كانت مسافة الستين ميلاً صعوداً في الجبل أكثر مما يمكن لصمامات قلبه أن تتحمله، على ما أفترض. قال حوذي العربة: «لقد مات (لصاحب) بعد أن قطعنا مرحلتين من الطريق وخرجنا من سولون. لذلك ربطته بحبل حتى لا يقع على الطريق، وهكذا وصلنا إلى سيملا. هل يمكن للصاحب أن يعطيني بقشيشاً؟ هو -«كان يقصد بـ (هو) «الرجل الآخر»- «وعدني بروبية».

كان «الرجل الآخر» جالساً وابتسامة عريضة مرسومة على وجهه، وكأنه كان يجد نكتة وصوله على هذه الحال مثيرة للابتسام. وبدأت السيدة شرايدرلينغ تئنّ وهي مرمية في الوحل. لم يكن هناك شخص آخر سوانا نحن الأربعة في المكتب، وكان المطر ما يزال يهطل بغزارة. كان أهم شيء هو إيصال السيدة شرايدرلينغ إلى بيتها، ويأتي بعد ذلك إبقاء اسمها خارج هذه القضية تماماً. تلقى سائق العربة خمس روبيات ليجد عربة في السوق من النوع التي يجرها صاحبها لنقل السيدة شرايدرلينغ. كان عليه أن يبلغ صاحب العربة لاحقاً بما جرى لـ «الرجل الآخر»، وكان على هذا أن يقوم بالترتيبات اللازمة كأفضل ما يمكن.

حُملت السيدة شرايدرلينغ إلى ما تحت سقيفة بعيداً عن المطر، وانتظرنا كلانا نحن الاثنين ثلاثة أرباع الساعة حتى وصلت العربة التي سوف تقلّها إلى البيت. تُرك «الرجل الآخر» كما كان بالضبط لدى وصوله إلى هذا المكان. كان من شأن السيدة شرايدرلينغ أن تفعل أي شيء عدا

البكاء وهو الأمر الذي كان من شأنه أن يخفف عنها. حاولت أن تصرخ ما أن عاد وعيها إليها، ثم بدأت تصلي على روح «الرجل الآخر». ولو لم تكن شريفة كنور النهار لصلّت من أجل روحها هي أيضاً. انتظرت منها أن تفعل ذلك، ولكنها لم تصلّ من أجل روحها. ثم حاولت أن أزيل بعض الوحل عن ثيابها. وأخيراً، وصلت العربة، وساعدتها على الرحيل... ولم يتم ذلك إلا عنوة إلى حد ما. كانت تلك مسألة شنيعة من أولها إلى آخرها؛ ولكن كان أصعب ما في الأمر هو عندما حاولت العربة أن تمر بين الجدار والعربة التي كان فيها «الرجل الآخر»، وحين شاهدت تحت نور المصباح تلك اليد الصفراء النحيلة تتشبث بالدعامة العمودية للظلة.

مضت إلى بيتها في الوقت الذي كان فيه الجميع ذاهبين إلى حفل راقص في «منزل نائب الملك»... وكان ذلك المنزل يدعى بـ «بيترهوف» في ذلك الحين. وقد قيل للطبيب إنها سقطت عن حصانها وإني وجدتها خلف محلات «جاكو»، وإني أستحق الكثير من الامتنان لأني تدبرت لها إسعافاً طبياً سريعاً. لم تمت، فالرجال من صنف السيد شرايدرلينغ لا يتزوجون من نساء يمتن بسهولة. بل هن يبقين على قيد الحياة ويصبحن قبيحات.

لم يحدث أن حكت لأحد عن لقائها الوحيد مع «الرجل الآخر» منذ زواجها. وحين شفيت من القشعريرة والسعال اللذين أصاباها بعد تعرضها لكل ذلك البلل في تلك الأمسية، وخرجت إلى الشارع، لم تلمّح قط لا بالكلام ولا بالإشارة إلى أنها قابلتني عند مكتب استئجار العربات. ربما لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك.

اعتادت أن تذرع المول جيئة وذهاباً، فوق ذلك السرج الرديء الفظيع، وهي تبدو كمن يتوقع أن يقابل شخصاً ما من ركن الشارع، في

أي لحظة. بعد عامين من ذلك، مضت إلى الوطن، وهناك توفيت... في بورنمث، على ما أعتقد.

حين كان شرايدرلينغ يثمل في المناسبات التي يتناول فيها الطعام على مائدة مشتركة، فقد اعتاد أن يتحدث عن «زوجتي العزيزة المسكينة». كان شرايدرلينغ رجلاً يتباهى دائماً بصراحته.

٨- عواقب

لقد برزت المهارات الصليبية-الوردية

في بلاد المشرق؛

يمكنك أن تجد معلّميهم حتى الآن

تحت جبل جاكاتالاس،

ابحث عن بومباست باراسلسوس،

اقرأ ما يقوله لنا الطوفان الباحث

عن المهيمن الذي يعدو

عبر أفلاك الشموس...

اقرأ حكايتي في النهاية، وانظر

إلى لونا في نقطة أوجها.

هناك مواعيد سنوية، ومواعيد تجري كل سنتين، ومواعيد تجري كل خمس سنوات في سيملا، وهناك مواعيد دائمة، أو حدث أن كانت هناك مواعيد دائمة، حيث تطيل السهر طوال فترة حياتك الطبيعية، وتكسب وجنتين حمراوين ودخلاً مادياً جيداً. طبعاً، يمكنك أن تهبط والطقس بارد، فسيملا تكون مملة في مثل ذلك الطقس.

جاء «تاريون» من حيث لا يدري أحد... من مكان بعيد جداً يقع في جزء مهجور من وسط الهند، حيث يسمون «باتشماري»(6) بـ «المصحّة»، ويطاردون الثيران المهرولة، على ما أعتقد. كان ينتمي إلى فوج؛ ولكن ما كان يريد حقاً أن يفعله كان الهروب من الفوج والسكن في سيملا إلى الأبد. لم يكن لديه أشياء مفضلة على نحو

خاص، فقد كان يكفيه حصان جيد وشريكة مهذبة. كان يعتقد أنه قادر على فعل كل شيء على النحو الصحيح، وهذا اعتقاد جميل حين تتمسك به من كل قلبك. كان ماهراً في أمور كثيرة، وحسن المظهر، وكان يجعل الناس من حوله يشعرون بالراحة... حتى في وسط الهند.

وهكذا مضى إلى سيملا، ولأنه كان ذكياً ومسلياً، فقد انجذب على نحو طبيعي إلى السيدة هوكسبي التي كانت قادرة على غفران أي شيء عدا الغباء. في إحدى المرات قدم لها خدمة جليلة بأن عدّل التاريخ المذكور على بطاقة دعوة إلى حفل راقص كبير كانت السيدة هوكسبي راغبة في حضوره ولم تكن قادرة على ذلك، لأنها تشاجرت مع مساعد نائب الملك الذي حرص، وهو الرجل الدنيء، على دعوتها إلى حفل راقص صغير، في اليوم السادس من الشهر، بدلاً عن الحفل الكبير في السادس والعشرين منه. وكان ذلك تزويراً ماهراً جداً. وحين قدمت السيدة هوكسبي بطاقة دعوتها إلى مساعد نائب الملك، ومازحته برقة لأنه لم يتدبر أمر الانتقام منها على نحو أفضل، فقد ظن هذا حقاً أنه ارتكب خطأ؛ وأدرك -وكان هذا تصرفاً حكيماً منه- أنه لا جدوى من التشاجر مع السيدة هوكسبي. كانت ممتنة لتاريون، وسألته ما الذي تستطيع أن تفعله لأجله. فقال ببساطة: «أنا حرّ الآن هنا وفي إجازة. ليس لديّ أي مصلحة هنا في سيملا كلها. اسمي ليس معروفاً من قبل أي رجل لديه وظيفة يمكنه أن يمنحها، وأنا أريد وظيفة... وظيفة جيدة وثابتة. أعتقد أنك تستطيعين فعل أي شيء تصممين عليه. هل لك أن تساعديني؟» فكرت السيدة هوكسبي لدقيقة، ومررت الجزء المرن من سوط ركوبها على شفتيها، كما كان دأبها حين تفكر. ثم تلألأت عيناها وقالت: «سأفعل»؛ ثم صافحته تأكيداً لذلك. ولم يفكر تاريون -الذي كان يتمتع بثقة تامة بهذه المرأة- مرة أخرى في هذا

الأمر إطلاقاً، إلا باستثناء التساؤل عن نوع تلك الوظيفة التي سينالها.

بدأت السيدة هوكسبي تحسب أسعار جميع رؤساء الدوائر وأعضاء المجلس الذين تعرفهم، وكانت كلما أمعنت في التفكير، تغرق أكثر في الضحك، لأن قلبها كان يشارك في اللعب وكان هذا يسليها. ثم أمسكت بـ «لائحة الموظفين المدنيين» وراجعت القليل من الوظائف. هناك وظائف جميلة في «لائحة الموظفين المدنيين». وأخيراً، قررت أنه، على الرغم من أن تاريون كان ذا ميزات تتجاوز عمله في «الإدارة السياسية»، إلا أنها فضلت أن تبدأ بمحاولة وضعه هناك. كانت خططها الرامية إلى تحقيق هذا الهدف غير ذات أهمية إطلاقاً، فقد كان الحظ أو القدر لعبة بين يديها، ولم يكن عليها أن تفعل أي شيء سوى أن تراقب مجرى الأحداث وأن يكون لها الفضل في ذلك.

كان جميع نواب الملك، حين يستلمون منصبهم لأول مرة، يمرون بالهوس العابر المسمى «السرية الدبلوماسية». وهذا يفتر مع مرور الزمن؛ ولكنهم جميعاً يصابون به في البداية، لأنهم قد وصلوا حديثاً إلى البلد. كان نائب الملك الذي يعاني من هذه الشكوى في ذلك الحين—حدث هذا قبل زمن بعيد، أي قبل وصول اللورد دفرين من كندا، أو اللورد ريبون من صميم الكنيسة الإنكليزية— مصاباً بها بشدة. وكانت النتيجة أن الرجال الجدد في مجال حفظ الأسرار الرسمية كانت تبدو عليهم التعاسة. وكان نائب الملك يمتدح نفسه على الأسلوب الذي كان يغرس به أفكار التكتم في موظفيه.

والآن، كان للحكومة العليا عادة تتميز بالإهمال فيما يتعلق بالالتزام بما يتم فعله بالأوراق المطبوعة. وهذه الأوراق تعالج مختلف أنواع الأمور – من دفع 200 روبية إلى مواطن هندي يعمل في «سلك الخدمات السرية» إلى التوبيخات الموجهة إلى «الفقهاء» «المعتمدين»

في الولايات المحلية، وكذلك رسائل إلى أمراء محليين تطلب منهم الالتزام بالنظام والتوقف عن خطف النساء أو حشو العصاة بالفلفل الأحمر المطحون، والأمور الشاذة الأخرى التي هي من هذا الصنف. بالطبع، ما كان يمكن لمثل هذه الأمور أن تذاع علناً، لأن الأمراء المحليين لا يرتكبون الأخطاء من وجهة النظر الرسمية، كما أن ولاياتهم تُدار أيضاً على أنها جزء من «إقليمنا». كما أن التعويضات الخصوصية الممنوحة إلى مختلف الأشخاص غريبي الأطوار ليست بالضبط مسائل تُنشر أخبارها في الصحف، على الرغم من أنها توفر مادة طريفة لقرائها. حين تجتمع الحكومة العليا في سيملا يتم تحضير هذه الأوراق هناك، وتوزع على الأشخاص المتوجب أن يروها في مكاتبهم أو ترسل بالبريد. كان مبدأ السرية بالنسبة إلى نائب الملك ذاك هاماً شأن العرف السائد، وكان يؤمن بأن استبداداً خيرياً شأن استبدادنا هذا لا يجب أن يسمح حتى بالأمور الصغيرة، مثل تعيينات الكتبة الثانويين، أن تتسرب حتى يحين الوقت الملائم. وقد كان متميزاً في الحفاظ على مبادئه.

كانت هناك دفعة مهمة جداً من الأوراق يتم تحضيرها في ذلك الحين. وكانت ستنقل باليد من هذا الجانب من سيملا إلى الجانب البعيد الآخر. لم يتم وضعها في مغلف رسمي بل في مغلف كبير مربع الشكل بلون قرنفلي باهت. طبعت المواد على ورق طري متغضن. وكانت معنونة إلى: «كبير الكتبة، إلخ...إلخ». والآن فإنه لا يوجد اختلاف كبير بين «كبير الكتبة، إلخ...إلخ» والسيدة هوكسبي لو كان العنوان مكتوباً بخط يد رديء جداً كما حدث في هذه الحالة. كان الحاجب الذي أوصل المغلف شخصاً غبياً أكثر من نظرائه من الحجاب. لقد نسي بالضبط العنوان الذي يتوجب أن يوصل إليه المغلف، فسأل

أول رجل إنكليزي قابله، وتبين أن هذا كان رجلاً يركب حصانه في طريقه إلى أنانديل وعلى وجه السرعة. لم ينظر الإنكليزي إلا بالكاد إلى المغلف وقال: «السيدة هوكسبي»، ومضى في طريقه. وهذا ما فعله الحاجب، لأن تلك الرسالة كانت الأخيرة بين الرسائل الأخرى التي كانت في حوزته، وكان يريد إنهاء واجبه. لم يكن هناك سجل للتوقيع عليه. وقد دفع بالمغلف بين يدي خادم السيدة هوكسبي وانطلق ليدخن مع صديق له. كانت السيدة هوكسبي تتوقع نماذج ورقية للخياطة من صديقة. ما أن حصلت على المغلف المربع الكبير، فقد قالت: «أوه، يا للمخلوقة العزيزة!» وفتحت المغلف بسكين فتح المغلفات وسقطت جميع الأوراق المطبوعة على الأرض.

بدأت السيدة هوكسبي بالقراءة. سبق أن قلث إن تلك الدفعة من الأوراق كانت هامة. وهذا يكفي لك أن تعرفه. كان فيها تلميح إلى مراسلات وإجراءين، وأمر حاسم إلى زعيم محلي، ودزينتين من الأمور الأخرى، فشهقت السيدة هوكسبي وهي تقرأ، وتلمح لأول مرة الآلية العارية للحكومة الهندية العظيمة وقد تعرت من قوالبها وطلائها ودهانها وحواجز حمايتها مما يصيب بالصدمة حتى أغبى الأغبياء. وكانت السيدة هوكسبي امرأة ذكية. شعرت ببعض الخوف في البداية، وشعرت وكأنها أمسكت بومضة برق من ذيلها، ولم تعرف بالضبط ما تفعله بتلك الدفعة من الأوراق. كانت هناك ملاحظات وأحرف أولى من أسماء على جوانب الأوراق؛ وكانت بعض الملاحظات أخطر من الأوراق بالأحرى. كانت الأحرف الأولى تنتمي إلى أسماء أشخاص متوفين أو راحلين؛ ولكنهم كانوا ذوي أهمية وهم أحياء. تابعت السيدة هوكسبي القراءة وفكرت بهدوء خلال ذلك. ثم خطر لها مدى قيمة كنزها هذا، وراحت تتأمل في أفضل طريقة لاستغلاله. ثم مر بها تاريون، وقرأا معاً

جميع الأوراق، وأقسم تاريون -الذي لم يكن يعرف كيف وصلتها تلك الأوراق- أن السيدة هوكسبي أعظم امرأة على وجه البسيطة. وأعتقد أن هذا صحيح أو هو كذلك تقريباً.

قال تاريون بعد ساعة ونصف الساعة من الدراسة والحوار: «السبيل الشريف هو الأفضل دائماً. بعد أخذ كل شيء في الاعتبار، فإن (فرع المخابرات) هو اختياري. إما هو أو (دائرة الشؤون الخارجية). سأذهب وأحاصر الآلهة العليا في معابدها».

لم ينشد عون رجل صغير، أو عون رجل كبير ضئيل القيمة، أو عون رئيس ضعيف لدائرة قوية، ولكنه قام بزيارة أكبر وأقوى رجل تمتلكه الحكومة، وشرح له أنه يريد وظيفة في سيملا براتب جيد. كانت الوقاحة المركّبة لهذا الطلب قد أضحك «الرجل القوي»، وبما أنه لم يكن لديه ما يفعله في تلك اللحظة، فقد أصغى إلى مقترحات تاريون الجريئة والوقحة. قال الرجل القوي: «لا بد على ما أفترض أن تكون لديك مؤهلات خاصة إلى جانب موهبة الثقة بالذات، مقابل تلك المطالب التي تتقدم بها؟» قال تاريون: «هذا أمر يعود إليك أن تحكم عليه يا سيدي». ثم بدأ -وهو صاحب ذاكرة جيدة- بسرد القليل من أهم الملاحظات التي وردت في الأوراق... ببطء والواحدة إثر الأخرى كما ينقّط المرء الكلوروداين(7) في كأس. وحين وصل إلى الأمر الحاسم أي إلى الزعيم المحلي - وكان أمراً حاسماً جداً، فإن الرجل القوي شعر بالانزعاج والقلق. ثم أنهى تاريون كلامه قائلاً: «وأتصور أن تلك المعرفة الخصوصية بهذا النوع من الأمور هو على الأقل ذو قيمة كبيرة لوظيفة في دائرة الشؤون الخارجية مثلاً، وذلك يعود إلى حقيقة كوني ابن أخ زوجة ضابط مهم». وكان هذا مما أصاب الرجل القوي في الصميم، فقد كانت آخر وظيفة في دائرة الشؤون الخارجية

قد تم شغلها بالمحاباة، وكان هو يعرف ذلك.

قال الرجل القوي: «سأرى ما يمكنني أن أفعله من أجلك».

قال تاريون: «شكراً جزيلاً». ثم غادر المكان، كما غادره الرجل القوي ليرى كيف يمكن إعاقة التعيين.

***

تبع ذلك توقف مؤقت لأحد عشر يوماً؛ وخلال ذلك حدث الكثير من الرعد والبرق وتبادل إرسال البرقيات. لم تكن الوظيفة مهمة جداً، وهي براتب يبلغ ما بين 500 روبية و700 روبية في الشهر. ولكن، كما قال نائبُ الملك، فقد كان مبدأ السرية الدبلوماسية هو الذي يتوجب المحافظة عليه، وكان هناك احتمال كبير في أن شاباً يعرف كل تلك المعلومات الخاصة يستحق التوظيف. وهكذا وظفوا تاريون. كانوا قد ارتابوا فيه دون شك، على الرغم من أنه قد تحجج بأن معلوماته كانت نتيجة لمواهب نادرة وفريدة خاصة به. والآن، فإن عليك أن تملأ بنفسك الكثير من نواقص هذه الحكاية، بما في ذلك ما جرى لاحقاً من تطورات في حكاية المغلف المفقود، لأن هناك أسباباً تمنعنا من كتابتها. إن لم تكن تعرف ما يجري من أمور «هناك في الأعلى»، فلن تفهم كيف تملأ هذه الفراغات وستقول إن ذلك مستحيل.

ما قاله نائب الملك حين تم تقديم تاريون إليه كان: «هذا هو الشاب الذي (عصف) بحكومة الهند، أليس كذلك؟ تذكر يا سيدي أن هذا لا يمكن أن يحدث مرتين». إذاً، لا بد أنه كان يعرف شيئاً ما.

أما ما قاله تاريون حين شاهد تعيينه في الوظيفة ينشر في الجريدة الرسمية، فهو: «لو أن السيدة هوكسبي كانت أصغر بعشرين عاماً، ولو كنت أنا زوجها، لأصبحت نائباً للملك في الهند خلال خمسة عشر عاماً».

أما ما قالته السيدة هوكسبي حين شكرها تاريون والدموع تكاد تملأ عينيه، كان أولاً: «لقد قلت لك ذلك!» ثم قالت في نفسها: «يا لهم من حمقى هؤلاء الرجال!»

---

(6)-باتشماري: منطقة سياحية جميلة في الهند. (المترجم)

(7)-كلوروداين: واحد من أكثر الأدوية شيوعاً في بريطانيا خلال القرن التاسع عشر وكان يستعمل في علاج الكوليرا. (المترجم)

٩-اعتقال الملازم الأول غولايتلي

«لقد نسيت كلمة السر»، هذا ما يقوله هو

قلت أنا: «لقد فعلتها، أليس كذلك؟»

يقول هو: «ولكني العقيد».

أقول أنا: «أوه! أنت كذلك، هل أنت هو؟ العقيد أم ليس بالعقيد، عليك الانتظار حتى أنتهي من مهمتي وحتى يقدم الرقيب تقريره عن وجهك العجوز القبيح. أيها الشاب!

***

فليغفر الرب لروحي، فأنت هو العقيد على الرغم من كل شيء! ولكني كنت مجرد مجند جديد في ذلك الحين.

•(السيرة الذاتية غير المحررة للجندي أورثريس)

لو كان هناك شيء واحد كان غولايتلي يفتخر به أكثر من أي شيء آخر، لكان ذلك هو «أنه يبدو كضابط وجنتلمان». كان يقول إنه يعتني بمظهره ولباسه إلى ذلك الحد من أجل شرف الخدمة العسكرية، ولكن من كانوا يعرفونه على أفضل نحو يقولون إن ذلك كان مجرد غرور شخصي. لم يكن هناك أذى في شخص غولايتلي... ولا حتى بمقدار أونصة واحدة. كان يميز الجواد الأصيل حين يراه ويمكنه امتطاؤه بمهارة. كان يلعب البلياردو بطريقة تتفق مع قواعد اللعبة، وكان جيداً في لعبة الورق المسماة «هويست». كان محبوباً من الجميع؛ ولم يكن هناك من حلم ذات مرة بأن يراه مغلولاً بالأصفاد في محطة كهارب من الخدمة. ولكن هذا الأمر قد حدث فعلاً.

كان قادماً من دالهويز في نهاية إجازته على فرسه. كان قد قضى

فترة إجازته على نحو جيد وكما أرادها أن تكون، وكان قادماً في استعجال.

كان الطقس دافئاً جداً في دالهويز، وبما أنه كان عارفاً بما سيتوقعه هناك، فقد كان يرتدي بزة جديدة من الخاكي -وكانت ضيقة بأناقة- بلون أخضر زيتوني رقيق؛ مع ربطة عنق زرقاء بلون ريش الطاووس، وياقة بيضاء، وخوذة ببياض الثلج من طراز «سولاه». كان يفتخر بأنه يبدو أنيقاً حتى ولو كان في مهمة على فرس. بدا أنيقاً بالفعل، وكان قلقاً جداً حول مظهره قبل أن ينطلق في طريقه حتى أنه نسي أن يأخذ معه أي شيء سوى القليل من فكة النقود الصغيرة. ترك كل نقوده الورقية في الفندق. كان خدمه قد سبقوه إلى الطريق حتى يكونوا مستعدين في «باثانكوت» مع فرس جديد. كان هذا ما يسميه السفر «خفيفاً». كان فخوراً بقدرته على التنظيم.... أي ما نسميه «ترتيب تنظيم التفاصيل».

على مسافة اثنين وعشرين ميلاً من دالهويز بدأ المطر بالهطول... لم يكن مجرد رشاش جبلي، بل كان وابلاً قوياً ودافئاً وموسمياً. حثّ غولايتلي فرسه متمنياً لو أنه أحضر معه ممطرة. تحول التراب الذي على الطرقات إلى وحل، وعانى الفرس الكثير وهو يغوص في الوحل. وهذا ما جرى لطماق غولايتلي الخاكي. ولكنه تابع طريقه موطد العزم وحاول أن يفكر كم أن هذا البرد الخفيف كان باعثاً على السرور.

كان فرسه التالي متوحشاً عند الانطلاق، وكانت يدا غولايتلي زلقتين من المطر، واستطاع أن يرميه أرضاً عند إحدى المنعطفات. طارد هو الفرس وأمسك به، وتابع طريقه بسرعة. لم يكن الوحل المتناثر قد حسّن من مظهره ولا من مزاجه، ولكنه كان قد فقد أحد مهمازيه. ظل يستخدم المهماز الآخر. مع نهاية هذه المرحلة، كان

الفرس قد مارس ما اشتهاه من التمارين، وعلى الرغم من المطر، كان غولايتلي يتعرق بشدة. في نهاية نصف ساعة بائسة أخرى، وجد غولايتلي العالم يختفي أمام عينيه ضمن عجينة باردة ودبقة. كان المطر قد حوّل لبّ خوذته الكبيرة والبيضاء كالثلج إلى عجينة كريهة الرائحة، وكانت قد أطبقت على رأسه كحبة فطر نصف مفتوحة. كما كانت البطانة الخضراء لبزته قد بدأ الماء يسيل منها.

لم يقل غولايتلي أي شيء يستحق الذكر هنا. مزق وعصر حافة الخوذة بقدر ما استطاع، وانطلق في طريقه. كان مؤخر الخوذة يصفع رقبته، وجانباها يلتصقان بأذنيه، ولكن الشريط الجلدي والبطانة الخضراء أبقت الخوذة متماسكة تقريباً، حتى أن القبعة لم تهترئ حيث كانت تخفق.

في الوقت الحاضر كانت العجينة والمادة الخضراء تصنعان عفناً كان ينتشر فوق غولايتلي في عدة اتجاهات... نزولاً إلى ظهره وصدره بين أماكن أخرى. كان اللون الخاكي ينتشر أيضاً -فقد كان صباغه رديئاً إلى حد مثير ورهيب- فأصبحت أجزاء من غولايتلي بنية اللون، وكانت هناك بقع بنفسجية، وبعض الأماكن بلون المغرة الصفراء، وكانت هناك خطوط باللون الأحمر الداكن ولطخ تكاد تكون بيضاء، وفقاً لطبيعة وخواص الصباغ. وحين أخرج منديله ليمسح وجهه، واختلط جيداً اللون الأخضر لبطانة القبعة مع المادة الأرجوانية التي تشربت عبرها نحو رقبته من ربطة العنق، كانت النتيجة شيئاً مذهلاً.

قرب «دهار» توقف المطر وبرزت شمس المساء وجففته قليلاً. ولكنها ثبتت الألوان أيضاً. على مسافة ثلاثة أميال من باثانكوت، أصيب الفرس الأخير بالعرج التام، واضطر غولايتلي إلى السير على قدميه. وقد تابع السير حتى باثانكوت ليجد خدمه. لم يكن يعرف

آنئذ أن خادمه الذي يعتني عادة بمائدة طعامه قد توقف في مكان ما على الطريق ليشرب حتى يثمل، وسوف يحضر في اليوم التالي وهو يقول إنه قد لوى كاحله. حين وصل إلى باثانكوت، لم يستطع أن يجد خدمه، وكانت جزمته قد تقسّت وفسدت من الوحل، وكانت هناك كميات كبيرة من التراب تغطي جسده. كانت ربطة العنق الزرقاء قد لطخت ملابسه كما الخاكي. لذلك خلعها مع الياقة ورماهما بعيداً. ثم تلفظ بشيء ما يتعلق بالخدم عموماً وحاول الحصول على شراب. دفع ثماني «آنات» ثمن الشراب، وقد اكتشف بعد هذا أنه لم يتبق معه سوى ست آنات أخرى في جيبه... أو في العالم كله حسب الحالة التي كان فيها في ذلك الحين.

ذهب إلى مدير المحطة ليفاوضه على منحه بطاقة ركوب في الدرجة الأولى إلى «خازا» حيث كان مركز عمله. قال موظف قطع التذاكر شيئاً إلى مدير المحطة، وقال مدير المحطة شيئاً إلى عامل التلغراف، ونظر الثلاثة إليه بفضول. طلبوا منه الانتظار لنصف ساعة، ريثما يتصلون بأومريتسار ليحصلوا على التفويض اللازم. وهكذا راح ينتظر، ووصل أربعة من رجال الشرطة وتجمعوا من حوله على نحو لافت للنظر. وحين كان يستعد ليطلب منهم الابتعاد عنه، قال مدير المحطة إنه مستعد أن يقدم لـ «الصاحب» بطاقة سفر إلى أومريتسار، إذا تلطف الصاحب ودخل إلى مكتب قطع التذاكر. دخل غولايتلي إلى المكتب، وكان الأمر التالي الذي جرى هو أنه أصبح موثقاً من أحد ساقيه وأحد ذراعيه إلى ساق وذراع أحد رجال الشرطة، بينما كان مدير المحطة يحاول أن يغطي رأسه بالقوة بكيس من أكياس البريد.

جرت معركة كبيرة في أرجاء مكتب قطع التذاكر، وأصيب غولايتلي بجرح كريه فوق جبينه إثر سقوطه فوق إحدى المناضد. ولكن رجال

الشرطة كانوا أكثر من أنداد له، وقام مدير المحطة بتقييد يديه تماماً. وما أن انزلق كيس البريد حتى بدأ يعبر عن آرائه وقال كبير رجال الشرطة: «دون شك هذا هو الجندي الإنكليزي المطلوب. اسمعوا السباب الذي يتلفظ به!» ثم سأل غولايتلي مدير المحطة عما يحدث من إجراءات. قال له مدير المحطة إنه «الجندي جون بلينكل من الفوج...، وأن طوله هو 5 أقدام وسبعة إنشات، وشعره أشقر، وعيناه رماديتان، وله مظهر مشعث، وليست له علامات فارقة في البدن، وأن هذا قد فرّ من الخدمة العسكرية قبل أسبوعين. بدأ غولايتلي يشرح بالتفصيل وضعه الحالي، وكان كلما زاد في التفاصيل، كان مدير المحطة يصدقه على نحو أقل. قال له إن ضابطاً برتبة ملازم أول ما كان يمكن أن يبدو همجياً إلى ذلك الحد كما هو حال غولايتلي، وأن التعليمات المعطاة إليه كانت إرسال المقبوض عليه مخفوراً إلى أومريتسار في مقصورة «متوسطة». كان غولايتلي يشعر بالبلل والانزعاج وكانت اللغة التي استخدمها لا تلائم النشر هنا، حتى ولو شذبناها بقدر الإمكان. أوصله رجال الشرطة الأربعة إلى أومريتسار في مقصورة «متوسطة»، وأنفق الرحلة التي تستغرق أربع ساعات في شتمهم بطلاقة بقدر ما تسمح معرفته باللغة المحلية.

في أومريتسار، أنزل كأنه رزمة إلى الرصيف وسُلّم إلى عريف ورجلين من الفوج... انتصب غولايتلي في وقفته وحاول أن يتكلم بمرح. لم يكن يشعر كثيراً بالمرح ويداه في الأصفاد، مع أربعة من رجال الشرطة من خلفه، وكان الدم من الجرح على جبينه ينزف ثم يجف فوق خده الأيسر. ولم يكن العريف مزوحاً أيضاً. قال غولايتلي: «هذا خطأ سخيف جداً أيها الرجال»، وذلك حين قال له العريف إن عليه أن يصمت ويرافقهم. لم يكن غولايتلي راغباً في مرافقتهم. كان

يريد التوقف والشرح. وقد شرح الوضع بشكل جيد جداً، حتى قاطعه العريف قائلاً: «أنت ضابط!؟ إن أمثالك هم من يجلبون العار على أمثالنا. يا لك من ضابط ممتاز ونضر! أعرف فوجك. أنت تنتمي إلى (فرقة السكيرين). أنت عار أسود على الخدمة العسكرية».

حافظ غولايتلي على هدوئه، وبدأ يشرح كل شيء من البداية. ثم أبعد عن السير تحت المطر واصطحب إلى مقهى المحطة، وقبل له إن عليه ألا يجعل من نفسه أحمق عن حق. كان الرجال سيأخذونه موقوفاً إلى قلعة غوفينغار. وإن «موقوفاً» هنا عمل يخلو من الوقار شأن مرافقة شخص ويداه مقيدتان خلف ظهره.

كاد غولايتلي يصاب بالهيستريا من الغضب والبرد والخطأ والأصفاد وألم الرأس الذي كان الجرح على جبينه يسببه له. وقد بذل فعلاً قصارى جهده ليعبر عما في ذهنه. وحين انتهى وشعر أن حلقه قد جف من العطش، قال أحد الرجال: «لقد سمعت القليل من الشحاذين يعترفون، كانوا ثملين بعض الشيء. ولكن لم يسبق لي أن سمعت أياً منهم يتكلم مثل هذا (الضابط)». لم يكونوا غاضبين منه. بل كانوا قد أعجبوا به بالأحرى. شربوا القليل من البيرة في مقهى المحطة وقدموا لغولايتلي شيئاً منها لأن طريقته في الشتم رائعة. طلبوا منه أن يروي جميع مغامرات الجندي جون بلينك وهو طليق السراح في الريف؛ وقد جعل هذا غولايتلي أكثر غضباً من قبل. لو أنه استطاع أن يحتفظ برباطة جأشه لبقي هادئاً حتى يصل أحد الضباط؛ ولكنه حاول الهرب.

والآن فإن ضربة بعقب بندقية من طراز مارتيني في أسفل ظهرك ستكون مؤلمة جداً، كما أن قماش الخاكي العفن المشبع بماء المطر يتمزق بسهولة حين يقوم رجلان بالإمساك بك من قبتك بعنف.

نهض غولايتلي عن الأرض وهو يشعر أنه مريض جداً ومصاب

بالدوار، وقد تمزق قميصه من الأمام والخلف على نحو كامل تقريباً. استسلم لحظه التعس، وفي تلك اللحظة وصل القطار من لاهور وهو يحمل ضابطاً برتبة رائد من فوج غولايتلي.

«هذه شهادة الرائد كاملة...».

كان هناك صوت شجار في مطعم الدرجة الثانية، لذا دخلت وشاهدت واحداً من أكثر المتشردين شراً ممن سبق لعيني أن رأت. كانت جزمته وطماقه ملطخين بالوحل وبقع البيرة. وكان يرتدي شيئاً أشبه بكومة روث على رأسه، وكانت تتدلى على كتفيه اللتين كانتا مليئتين بالخدوش. كان يرتدي قميصاً يكاد يكون ممزقاً إلى نصفين، وكان يرجو من حراسه أن ينظروا إلى الاسم المكتوب على ذيل القميص. وحين رفع القميص إلى رأسه، لم أستطع في البدء معرفة من هو، ولكني تصورت أنه رجل في المرحلة الأولى من الجنون بسبب الطريقة التي كان يشتم بها وهو يتصارع مع ثيابه. وحين التفت وشاهدت ورماً بحجم فطيرة لحم خنزير فوق إحدى عينيه، وبعض الطلاء الأخضر فوق وجهه، وبعض الخطوط البنفسجية من حول عنقه، عرفت أنه غولايتلي. «كان سعيداً جداً برؤيتي»، كما قال الرائد، «وكان يأمل أن أستطيع أن أحكي لمن كانوا من حول المائدة عما حدث. لم أفعل ذلك، ولكنكم تستطيعون لو أحببتم، طالما أن غولايتلي عاد إلى الوطن.

أمضى غولايتلي الجزء الأكبر من ذلك الصيف محاولاً أن يجعل العريف والجنديين يقفون أمام محكمة عسكرية لقيامهم باعتقال «ضابط وجنتلمان». وقد كانوا بالفعل آسفين جداً على ارتكاب هذه الغلطة. ولكن الحكاية تسربت إلى مطعم الفوج، ثم انتشرت في أرجاء الإقليم.

١٠-عملية احتيال مصرفية

كان يحتسي المشروبات القوية، وكان كلامه فظاً؛ كان يشتري الملابس ويمتنع عن الدفع؛ اقتحم حدثاً واثقاً بحصان، وربح نادياً لكبار القوم بأسلوب مثير للشك.

ثم التفت جانباً، بين الخطيئة والحماقة، ليفعل الخير، وراح يخفيه مباشرة بالكذب.

•(قاعة الطعام)

لو كان «ريغي بيرك» في الهند الآن لكان سيمتعض من سرد حكايته؛ ولكنه في هونغ كونغ، ولن يراها، لذلك فإن سردها لا ضرر منه. كان ذاك هو الرجل الذي ارتكب عملية الاحتيال الكبرى في «بنك السند وسيالكوت». كان مديراً لفرع إقليمي، ورجلاً عملياً موثوقاً ذا خبرة كبيرة بأعمال القروض والتأمين المحلية. كان قادراً على جمع أعمال تدل على الطيش مع عمله. وكان ريغي بيرك مستعداً أن يركب أي شيء يرفع من مقامه، ويرقص بالأناقة نفسها التي يركب بها، وكان مرغوباً فيه من أجل كل نوع من التسلية في ذلك «الموقع».

وكما قال هو بنفسه، وكما اكتشف ذلك الكثير من الأشخاص وأصيبوا بالدهشة، فقد كان هناك اثنان يحملان كنية «بيرك»، وكلاهما مستعدان لخدمتك بالدرجة نفسها. هناك «ريغي بيرك» بين الساعة الرابعة والعاشرة، وهو مستعد لأي شيء، من نادي كبار القوم في الطقس الحار إلى نزهة على الجياد، وبين العاشرة والرابعة هناك «السيد ريجينالد بيرك»، مدير «بنك السند وسيالكوت الفرعي». يمكنك أن تلعب البولو معه في عصر أحد الأيام وتسمعه وهو يعبر عن آرائه حين يعبر رجل ما؛ ويمكنك أن تزوره في اليوم التالي لتحصل على قرض بمبلغ ألفي

روبية مقابل بوليصة تأمين من خمسمائة جنيه وتدفع في أقساط قدرها ثمانين جنيهاً. وهو سوف يتذكرك، ولكنك لن تستطيع تمييزه بسهولة.

كان مدراء البنك –وكانت إدارته الرئيسية في كلكوتا، ولمديره العام نفوذ لدى الحكومة– يختارون موظفيهم ببراعة. وكانوا قد اختبروا ريغي جيداً، ووثقوا به كثيراً كما يثق المدراء الكبار بمدراء الفروع. وعليك أن ترى بنفسك ما إذا كانت ثقتهم قد وضعت في غير موضعها الصحيح.

يقع البنك الفرعي لريغي في مركز مدني كبير، وكان يديره طاقم من الموظفين – مدير واحد، ومحاسب واحد، وكلاهما إنكليزيان، وأمين الصندوق، ومجموعة من الكتبة المحليين مع دورية الشرطة التي تحرس البنك ليلاً في الخارج. كان معظم أعمال هذا الفرع، وكان يقع في منطقة مزدهرة، تتم في مجال التحويلات والتجهيزات من كل الأنواع. والرجل الذكي الذي لا يختلط بزبائنه ويتعرف على الكثير عن شؤونهم، لهو أسوأ من رجل أحمق. كان ريغي شاباً في مظهره، حليق الذقن، مع تلألؤ في العينين، ورأس لا يؤثر فيها ما هو أقل من غالون من نبيذ ماديرا الخاص برجال المدفعية.

في أحد الأيام، وكان هناك حفل غداء كبير، أعلن عرضاً أن المدراء قد فرضوا عليه «تحفة طبيعية»، ألا وهي محاسب جديد سيأتي من إنكلترا. وكان على حق تماماً. فالسيد «سايلاس رايلي»، المحاسب، كان حيواناً مثيراً جداً للفضول – رجل من يوركشر، طويل وأخرق ونحيل ومترع بالغرور الوحشي الذي لا يزدهر إلا في أفضل مقاطعة في إنكلترا. كانت كلمة غطرسة قليلة لوصف الحالة العقلية للسيد سايلاس رايلي. كان قد عمل بجد وكدح لمدة سبع سنوات حتى وصل

إلى وظيفة أمين صندوق في «بنك هدرزفيلد»؛ وكانت خبرته كلها قد اكتسبت بين مصانع «الشمال». ربما كان بمقدرته أن يبدع أكثر في بومباي حيث يرضون بأرباح تبلغ 0.5 % والمال بخس. لم يكن مفيداً على الإطلاق في «الهند العليا» وفي منطقة تعتمد على زراعة القمح، حيث يحتاج المرء إلى رأس كبيرة وشيء من المخيلة لو كان عليه أن يحقق ميزانية مُرضية. كان ضيق التفكير إلى حد استثنائي في مجال الأعمال، وبما أنه جديد في هذه البلاد، فلم تكن لديه أي فكرة بأن الأعمال المصرفية في الهند تختلف تماماً عما هي في الوطن. وشأنه شأن معظم الرجال الأذكياء العصاميين، فقد كان في طبيعته الكثير من البساطة؛ وكان قد فسر على نحو ما أو آخر تلك المصطلحات اللطيفة المهذبة الواردة في كتاب تعيينه محولاً إياها إلى إيمان بأن المدراء قد اختاروه بناء على مواهبه الخاصة واللامعة، وأنهم يعتبرونه شخصاً هاماً جداً وموضع ثقة. وقد نمت هذه الفكرة ثم تبلورت؛ فكانت تزيد من غروره الطبيعي الخاص بسكان الريف الشمالي. وإضافة إلى ذلك، فقد كانت ضعيف البنية، ويعاني من علة في صدره، كما كان سريع الغضب.

سوف تقرّون بأن ريغي كان على حق حين سمى محاسبه الجديد بـ «التحفة الطبيعية». لم يتفاهم الرجلان إطلاقاً. فقد كان رايلي يعتبر ريغي على أنه أحمق خفيف العقل وطائش، مدمن على ما تعرفه سوى السماوات من الملذات في أماكن تعرف بـ «الموائد المشتركة»، وأنه غير ملائم لممارسة مهنة خطيرة وجدية كالصناعة المصرفية. لم يستطع أبداً أن يستوعب مظهر ريغي الشاب، وهيئة «عدم الاكتراث» التي تبدو عليه؛ كما لم يستطع أن يفهم أصدقاء ريغي -رجال لا مبالين وذوي بنية قوية من الجيش- كانوا يركبون الجياد متجهين

إلى وجبات فطور في أيام الأحد في البنك، ويروون حكايات ساخنة حتى ينهض رايلي ويغادر الغرفة. كان رايلي يعرض دائماً على ريغي رأيه في كيفية وجوب إدارة الأعمال، وقد ذكّره ريغي في أكثر من مناسبة بأن سبع سنوات تعتبر خبرة محدودة خاصة إذا قضاها الموظف بين هدرزفيلد وبيفرلي، وهي لا تؤهل المرء لإدارة أعمال تجارية كبيرة في وسط البلاد. كان رايلي يعبس ويشير إلى نفسه على أنه واحد من أعمدة البنك وصديق عزيز للمدراء الكبار، وكان ريغي ينتف شعره من الغيظ. لو أن مرؤوساً إنكليزياً خذلك في الهند، فإنك ستعاني من المصاعب بالفعل، لأن العون من السكان المحليين خاضع لقيود صارمة. مع حلول الشتاء، مرض رايلي لأسابيع بحالها مع تلك العلة التي رئتيه، وهذا ألقى بالمزيد من عبء العمل على ريغي. ولكنه فضّل ذلك على الاحتكاك المتواصل بينهما حين يكون رايلي غير مريض.

اكتشف أحد مفتشي البنك الجوالين هذه الإخفاقات وأبلغها إلى المدراء الكبار. كان رايلي قد فُرض فرضاً على البنك لتوظيفه من قبل أحد أعضاء البرلمان البريطاني، وكان هذا في حاجة إلى دعم والد رايلي الذي كان حريصاً على إخراج ابنه من إنكلترا إلى بلد ذي طقس أدفأ بسبب العلة في رئتيه. كان لعضو البرلمان حصة في البنك، ولكن أحد المدراء الكبار كان يريد لمرشح يخصه لهذه الوظيفة أن يشغلها. وبعد وفاة والد رايلي، فقد جعل بقية أعضاء مجلس الإدارة يرون أن محاسباً يبقى مريضاً نصف العام يجب أن يتخلى عن مكانه لشخص صحيح البدن. لو عرف رايلي القصة الحقيقية لتعيينه لربما كان سيتصرف على نحو آخر. ولكنه لم يكن يعرف أي شيء، فراحت فترات المرض المطولة تتناوب مع إثارة غضب ريغي على نحو دائم وملحّ

بالإضافة إلى تدخله فيما لا يعنيه مع الوسائل العديدة التي لا حصر لها التي يستطيع بها الغرور من قبل مرؤوس أن يمارسها. اعتاد ريغي أن يلقبه بأسماء لافتة للنظر ومثيرة للضحك أثناء غيابه لينفّس عن مشاعره. ولكنه لم يعاتبه في حضوره؛ فقد قال: «رايلي مجرد شخص هش حتى أن نصف غروره الكريه يعود إلى تلك الآلام في صدره».

في أحد الأيام الأخيرة من شهر نيسان (أبريل) اشتد المرض بالفعل على رايلي. فحصه الطبيب وقلّبه، وقال له إن حالته ستتحسن قريباً. ثم مضى الطبيب إلى ريغي وقال: «هل تعرف مدى مرض محاسبك ذاك؟» قالِ ريغي: «لا! كلما كانت حالته أسوأ كلما كان ذلك أفضل. اللعنة عليه! إنه مجرد شخص مزعج وثرثار حين يكون في حالة صحية جيدة. سأسمح لك بأن تستولي على خزينة البنك لو استطعت أن تخدره بحيث يصمت في هذا الطقس الحار».

ولكن الطبيب لم يضحك... قال: «يا سيدي، أنا لا أمزح. سأمنحه إجازة مرضية أخرى تمتد لثلاثة أشهر يقضيها في السرير وأسبوعاً أو نحوه ليموت خلاله. أقسم بشرفي وسمعتي أن هذه هي المهلة التي تبقت له في هذه الدنيا. لقد تغلغل فيه السلّ حتى مخ العظام».

تغير وجه ريغي على الفور متحولاً إلى وجه «السيد ريجينالد بيرك»، وأجاب قائلاً: «ما الذي أستطيع فعله؟ قال الطبيب: «لا شيء، عملياً الرجل سبق له وأصبح في عداد الأموات. أبقه هادئاً ومرحاً، وقل له إنه سوف يشفى. هذا كل ما في الأمر. سأعتني به حتى النهاية بالطبع».

مضى الطبيب في طريقه، وجلس ريغي ليفتح بريد المساء. كانت أول رسالة تصله هي من المدراء الكبار يبلغونه فيها أن على السيد رايلي أن يستقيل مع منحه إشعاراً بذلك قبل شهر، وذلك بموجب شروط اتفاقيته، وأن رسالتهم إلى رايلي المتعلقة بهذا الأمر سترسل

إليه لاحقاً، وأن محاسباً جديداً سيوفد إليهم، وهو شخص يعرفه ريغي ويوده.

أشعل ريغي سيجاراً، وقبل أن ينهي تدخينه، كان قد رسم خطة خداع. أزاح رسالة المدراء الكبار جانباً -تجاهلها- ودخل ليخاطب رايلي الذي كان فظاً كعادته، وكان ينقّ وهو يتشكك من الطريقة التي ستدار به شؤون البنك خلال مرضه. لم يفكر قط بالعمل الإضافي الذي سيتحمله ريغي، بل فكر فحسب بالضرر الذي سيحل باحتمالات ترقيته في الوظيفة. ثم طمأنه ريغي بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنه، أي ريغي، سيتشاور مع رايلي يومياً حول إدارة البنك. شعر رايلي ببعض الراحة، ولكنه ألمح بإسهاب إلى أنه ليس راضياً جداً عن قدرات ريغي في مجال الأعمال المصرفية. كان ريغي متواضعاً. وكانت هناك رسائل في مكتبه وصلته من المدراء الكبار تمتدح أداءه كمدير وتقول له إن فرعاً رئيسياً للبنك كفرع «جبل طارق» أو «هاردي» كان سيفتخر بأن يكون هو مديراً له!

مرت الأيام في المنزل الكبير المعتم، ووصلت رسالة المدراء الكبار بصرف رايلي من الخدمة، ولكن ريغي وضعها جانباً، وكان في كل مساء يجلب السجلات إلى غرفة رايلي، ويريه كيف كانت شؤون البنك تجري، بينما كان رايلي يزمجر. بذل ريغي قصارى جهده ليجعل البيانات مرضية لرايلي، ولكن «المحاسب» كان على ثقة من أن البنك كان في طريقه إلى الخراب في غيابه. في شهر حزيران (يونيو)، وحين راح المكوث في السرير يؤثر على معنوياته، سأل إن كان المدراء الكبار قد لاحظوا غيابه عن العمل، وقال له ريغي إنهم أرسلوا رسائل مترعة جداً بالتعاطف، وكانوا يأملون في أنه سيتمكن من العودة إلى تقديم خدماته الثمينة قريباً. وقد أظهر الرسائل إلى

رايلي، وقال رايلي إنه كان على المدراء الكبار أن يراسلوه هو مباشرة. بعد أيام قليلة، فتح ريغي بريد رايلي تحت النور الخافت للغرفة، وأعطاه الرسالة -وليس المغلف- التي أرسلت إلى رايلي من المدراء الكبار. قال رايلي إنه سيشكر ريغي لو أنه لا يتدخل في شؤون أوراقه الخصوصية، خاصة وأن ريغي يعرف أنه ضعيف إلى حد لا يستطيع معها أن يفتح رسائله بنفسه. اعتذر منه ريغي.

ثم تغير مزاج رايلي، وراح يحاضر ريغي مؤنباً إياه على أساليبه الشريرة: على جياده وأصدقاءه السيئين. «بالطبع، فإن وجودي هنا وأنا مضطجع على ظهري يا سيد بيرك، يجعلني غير قادر على تقويمك. ولكن حين سأشفى من مرضي، آمل حقاً أنك ستبذل اهتماماً أكبر بكلامي». إن ريغي الذي تخلى عن لعب البولو والمشاركة في وجبات العشاء ولعب التنس وكل ما إلى ذلك، وذلك للاهتمام برايلي، قال له إنه نادم، وجعل رايلي يريح رأسه على الوسادة، وسمعه ينق ويعترض بهمسات قاسية وجافة مع سعال متقطع، دون أي علامة على نفاد الصبر. وقد حدث هذا في نهاية يوم من أيام العمل المكتبي الشاق، فقد كان يؤدي وظيفتين في آن معاً، وذلك في النصف الثاني من شهر حزيران (يونيو). اضطر ريغي إلى أن يجعل «كارون»، المحاسب الجديد، ينام في النادي نتيجة لذلك. وقد كان لوصول كارون أن خفف بعض الحمل الثقيل عن كاهل ريغي، وتوفر له المزيد من الوقت يقضيه في تلبية ابتزازات رايلي: أن يشرح ويواسي ويبتكر ويسوي ويعيد تسوية أوضاع المسكين البائس في السرير، وأن يزور رسائل مديح قادمة من كلكوتا. في نهاية الشهر الأول، رغب رايلي في إرسال بعض المال إلى أمه في الوطن. أرسل ريغي النقود. في نهاية الشهر الثاني وصل راتب رايلي كالمعتاد. دفع ريغي المبلغ من ماله الخاص، وكتب

إلى رايلي، من المدراء الكبار، رسالة جميلة.

كان رايلي مريضاً جداً بالفعل، ولكن شعلة الحياة كانت تحترق على نحو متقلقل. بين الحين والآخر، كان ينتابه المرح والثقة بالمستقبل، فيرسم الخطط الخاصة بالذهاب إلى الوطن ومشاهدة أمه. كان ريغي يصغي إليه بصبر بعد أن ينتهي من العمل المكتبي، ويشجعه.

في أوقات أخرى كان رايلي يلح على ريغي أن يقرأ له شيئاً من الكتاب المقدس ومقاطع كئيبة من كتاب «الميثوديين»(8). ومن هذه المقاطع كان يوجه تعليمات أخلاقية إلى مديره. ولكنه كان يجد ما يكفي من الوقت دائماً ليزعج ريغي بأمور إدارة البنك، وكان يشرح له أين توجد نقاط الضعف فيها.

هذه الحياة داخل المنزل وفي غرفة شخص مريض والتوتر الدائم أرهقا ريغي إلى حد كبير، وأثر ذلك كله في أعصابه، وجعله يخسر عند لعب البيلياردو بحدود أربعين نقطة بالمقارنة مع ما سبق. ولكن كان على أعمال البنك وأعمال غرفة المريض أن تستمر على الرغم من أن الحرارة كانت 116درجة فهرنهايت (46.6 مئوية).

في نهاية الشهر الثالث كانت حالة رايلي تتراجع باضطراد، وكان قد بدأ يدرك أنه مريض جداً. ولكن الغرور الذي كان يجعله يعذّب ريغي راح يبقيه بعيداً عن تصديق الأسوأ. قال الطبيب: «كان في حاجة إلى نوع ما من أنواع المحفزات الذهنية إن كان سيستمر على هذه الحال. عليك أن تبقيه مهتماً بالحياة إن كنت حريصاً على بقائه حياً». وهكذا كان رايلي، بالتناقض مع جميع قوانين التجارة والأعمال والموارد المالية، يتلقى كترفيع على راتبه من المدراء الكبار ما نسبته خمسة وعشرين بالمائة من راتبه. وقد نجح «المحفّز العقلي» على نحو جميل.

كان رايلي سعيداً ومرحاً، وكما يكون عليه الأمر غالباً لدى مرضى السلّ، يكون العقل في أفضل حالاته بينما الجسد في أضعف حالاته. وقد أبقاه ذلك حياً لشهر آخر، وهو يزمجر وينقّ فيما يخص أعمال البنك، ويتحدث عن المستقبل، ويستمع إلى الكتاب المقدس وهو يُقرأ له، ويحاضر ريغي في موضوع الآثام التي يرتكبها، ويتساءل متى سيتمكن من السفر إلى خارج الهند.

ولكن حدث في نهاية شهر أيلول (سبتمبر) أن نهض من سريره ذات مساء حار لا يعرف الرحمة وهو يشهق قليلاً؛ وقال لريغي بسرعة: «يا سيد بيرك، أنا سأموت. أعرف ذلك بنفسي. صدري فارغ تماماً في الداخل وليس هناك إطلاقاً ما أتنفس به. وحسب معرفتي فأنا لم أفعل أي شيء يثقل ضميري. (كان يعود الآن ليتكلم عن فترة صباه). « أحمد الله أني ابتعدت عن كل اشكال الخطيئة، وأنا أنصحك يا سيد بيرك...».

وهنا خرس تماماً، وانحنى ريغي فوقه.

«أرسل راتبي عن شهر أيلول (سبتمبر) إلى أمي... كنت سأنجز الكثير للبنك لو كنت سأبقى حياً... سياسة خاطئة... لا خطأ مني...

ثم التفت بوجهه إلى الجدار ولفظ آخر أنفاسه.

غطى ريغي وجهه بالشرشف وخرج إلى الشرفة، وكان معه آخر «محفز عقلي»... رسالة تعزية وتعاطف من المدراء الكبار... كانت لم تستعمل بعد.

فكر ريغي: «لو بكّرت في حضوري عشر دقائق، لربما كنت قادراً على رفع معنوياته بحيث يبقى حياً يوماً آخر».

(8)-الميثوديين: طائفة من المسيحيين البروتستانت الذين هم من أتباع تعاليم القس الإنكليزي «جون ويزلي» (1703–1791) (المترجم)

١١- قضية طلاق برونكهورست

خلال النهار، حين كانت تتنقل من حولي، في الليل، وهي نائمة إلى جانبي...

كنت ضجراً، كنت ضجراً من وجودها، يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة، بدأت أكرهها...

رجوت الله أن يميتها أو يميتني!

•(اعترافات)

كان هناك رجل يدعى برونكهورست -وكان رجلاً مثلث الزوايا، وكهلاً وعسكرياً- كان شعره أشيب بلون شعر حيوان الغرير، وكان بعض الناس يقولون إن في دمه شيئاً من أصول ريفية. ولم يكن ممكناً إثبات ذلك. لم تكن السيدة برونكهورست شابة بالضبط، ولو كانت أصغر بخمسة عشر سنة من زوجها. كانت امرأة ضخمة الجسد، شاحبة اللون، وهادئة، وذات جفون ثقيلة فوق عينين ضعيفتي البصر، وشعر يتحول لونه إلى الأحمر أو الأصفر حين تسقط الأنوار عليه.

لم يكن برونكهورست لطيفاً على الإطلاق. ولم يكن من النوع الذي يكنّ أي احترام للنساء ولا للأكاذيب الخصوصية التي تجعل الحياة أقل إثارة للقرف مما هي عليه. كان سلوكه مع زوجته فظاً. هناك أشياء كثيرة -بما في ذلك الهجوم الفعلي بقبضة يده - ولكن الزوجة كانت تصبر. ولكن من النادر أن تتحمل زوجة -كما تحملت السيدة برونكهورست- ذلك السلوك المديد من المزاح الوحشي القاسي، والاستخفاف بنقاط ضعفها وصداعها المتكرر ونوباتها الصغيرة من المرح، وملابسها، ومحاولاتها الصغيرة الغريبة لإضفاء الجاذبية على نفسها أمام زوجها وهي التي تعرف أنها لم تعد تتحلى بالحسن الذي

سبق أن تحلّت به، و -أسوأ منذ لك كله- كان هناك الحب الذي تحمله لأطفالها. كان ذلك النوع الخاص من المزاح بيد ثقيلة عزيز على قلب برونكهورست. أفترض أنه انزلق فيه لأول مرة دون أن يقصد في أن يتسبب في أي أذى، وذلك خلال شهر العسل، حين يجد الناس أن مخزونهم المعتاد من كلمات الغزل قد فرغ، وبالتالي فهم يبالغون ولكن بالاتجاه المضاد في التعبير عن مشاعرهم. إن دافعاً مشابهاً يجعل الرجل يقول: «تباً، أيها الوحش العجوز!» حين يمرغ حصان محبوب أنفه في مقدم معطفه. ولسوء الحظ، حين تترسخ عادات الزواج وتفاعلاته، تتبقى صيغة الحديث والكلام، ولكن مع تلاشي الحنان والرقة، فتتأذى الزوجة من هذه العبارات ولو لم تعبر عن ذلك. ولكن السيدة برونكهورست كانت مخلصة لـ «تيدي» كما اعتادت أن تسميه. ربما كان هذا هو السبب في اعتراضه عليها. وربما -وهذه مجرد نظرية لتفسير سلوكه المشين لاحقاً- أنه قد استسلم أمام هذا الشعور الشاذ والوحشي الذي يمسك بخناق زوج سبق له أن تزوج منذ عشرين عاماً، وذلك حين يرى على المائدة الوجه نفسه، وجه زوجته، ويعرف أنه وهو جالس قبالته فإن عليه أن يستمر في هذا الجلوس حتى يوم وفاتها أو وفاته. يعرف معظم الرجال وجميع النساء هذه النوبة. وهي لا تدوم سوى ما تستغرقه ثلاثة أنفاس حكماً، ولا بد أنها «عودة» إلى أزمان كان فيها الرجال والنساء أسوأ بالأحرى مما هم عليه الآن، وأكثر شراً بحيث لا مجال لمناقشة أمرهم الآن.

كانت وجبة العشاء في منزل آل برونكهورست عقوبة لا يحرص سوى القليل من الرجال على تحملها. كان برونكهورست يستمتع بالتلفظ بأمور تجفل زوجته. وحين كان ابنهم الصغير يدخل لتناول حلوى ختام الوجبة، اعتاد برونكهورست أن يعطيه نصف قدح من

النبيذ، وبالطبع، كان هذا الصغير المسكين يتمرد في البداية ثم يصبح مثيراً للشفقة، ثم يُحمل خارج الغرفة وهو يزعق. كان برونكهورست يسأل هل كان هذا يا ترى هو السلوك المعتاد لـ «تيدي» الصغير، وألم يكن لدى السيدة برونكهورست ما يكفي من الوقت تكرسه «لتعليم هذا الشحاذ الصغير اللياقة والأدب». كانت السيدة برونكهورست التي كانت تحب هذا الصبي أكثر من حبها لحياتها تحاول ألا تبكي... كانت روحها المعنوية قد تحطمت على ما يبدو بهذا الزواج. وأخيراً كان برونكهورست قد اعتاد أن يقول: «حسناً! هذا يكفي، هذا يكفي. أستحلفك بالله أن تتصرفي كامرأة عاقلة. ادخلي إلى غرفة الجلوس». كانت السيدة برونكهورست تذهب، وهي تحاول أن تخفي خيبتها بابتسامة؛ وكان ضيف الأمسية يشعر بالغضب والانزعاج.

بعد ثلاث سنوات من هذه الحياة المرحة -فالسيدة برونكهورست لم يكن لديها صديقات تتحدث إليهن- رَوّع سكان «الموقع» بالخبر الذي أفاد أن برونكهورست قد تقدم بدعوى إلى محكمة الجنايات ضد رجل يسمى «بييل»، الذي كان بكل تأكيد يلاطف السيدة برونكهورست أينما ظهرت علانية. كان انعدام التحفظ على نحو مطلق ذلك الذي أبداه برونكهورست في تعامله مع هذا العار الشخصي قد ساعدنا على أن نعرف أن الدليل ضد بييل سيكون ظرفياً ومحلياً يعتمد على شهود من السكان المحليين. لم تكن هناك أي رسائل؛ ولكن برونكهورست قال بصراحة إنه سيقلب السماء والأرض حتى يرى بييل وهو يشرف على حبك السجاد في «السجن المركزي». لم تعد السيدة برونكهورست تغادر منزلها إطلاقاً، وتركت للناس الطيبين أن يقولوا ما يشاؤون. كانت الآراء منقسمة. كان ثلثا سكان الموقع تقريباً قد أسرعوا إلى الاستنتاج بأن بييل كان مذنباً؛ ولكن كان هناك اثنا عشر رجلاً كانوا

يعرفونه ويودونه فوقفوا في صفه. أصيب بييل بالغضب وبالدهشة. أنكر هو الأمر كله، وأقسم أنه سيحطم برونكهورست حتى ليقربه من الموت. ليست هناك هيئة محلفين، كما كنا نعرف، يمكن أن تدين رجلاً بجريمة إن كان الدليل من أشخاص محليين في بلاد تستطيع فيها شراء تهمة بالقتل، بما في ذلك الجثة، وكل ما يلزم مقابل أربعة وخمسين روبية. ولكن بييل لم يبال بالخروج بريئاً من هذه القضية مستفيداً من مجرد الشك. كان يريد البراءة التامة؛ ولكن، وكما قال في إحدى الليالي: «إنه يستطيع أن يبرهن على أي شيء بدليل صادر عن الخدم، وأنا ليست لي سوى كلمتي الصريحة». وقد جرى هذا قبل شهر تقريباً من تاريخ المحاكمة؛ ونحن لا يمكننا أن نفعل شيئاً عدا الاتفاق مع بييل في موقفه. كل ما نستطيع أن نتأكد منه هو أن الدليل الصادر عن السكان المحليين سيكون غير كاف لتشويه سمعة بييل أمام من يعرفونه. فعندما يبدأ أحد السكان المحليين بالكذب تحت اليمين فهو سيكشف نفسه تماماً. إنه لا يتقن سرد التفاصيل.

قال أحد العباقرة وكان يجلس في آخر المنضدة التي كان يجري من حولها البحث في هذه القضية: « انتبهوا إلي! لا أعتقد أن المحامين جيدون إطلاقاً. اجعلوا رجلاً يكتب رسالة إلى ستريكلند، ليرجوه أن يأتي وينقذنا».

كان ستريكلند يقيم على مسافة تبعد مائة وثمانين ميلاً بالقطار. ولم يكن قد مضى على زواجه من الآنسة يوغال زمن طويل، ولكنه اشتم في البرقية فرصة للعودة إلى العمل كمحقق، وهو ما تتوق نفسه إليه بشدة. وفي الليلة التالية وصل إلينا واستمع إلى القصة. أنهى تدخين غليونه، وقال بلهجة نبوئية: «علينا الحصول على الدليل: بائع فواكه متنقل وخادم مسلم مختص بالخدمة على مائدة الطعام، وخادمة

محلية واقعة في غرام كنّاس ما، على ما أفترض، هم أعمدة الاتهام. أنا موافق على المهمة. ولكني أخشى من أن أكون قد فقدت براعتي في الكلام».

نهض ودخل إلى غرفة نوم بييل، حيث كانت حقيبته، وأغلق الباب. بعد ساعة، سمعناه يقول: «لم أتمكن من التخلي عن حيلي القديمة بعد زواجي. هل هذا ملائم؟» بدا كـ «فقير هندي» يحيينا عند الباب.

قال ستريكلند: «والآن أقرضوني خمسين روبية وأقسموا بشرفكم ألا تبلغوا زوجتي بما يحصل الآن».

حصل على كل ما طلبه، وغادر المنزل بينما شرب الجالسون إلى المائدة كأساً على نخبه. وما فعله لا يعرفه سواه. ظل ذلك «الفقير الهندي» يتسكع في أرجاء مجمع المساكن حيث يسكن برونكهورست لمدة أسبوعين. ثم ظهر كنّاس، وحين سمع به بييل، قال إن ستريكلند كان ملاكاً بكل ما في الكلمة من معنى. وسواء كان الكناس قد مارس الحب مع «جانكي»، خادمة السيدة برونكهورست، أم لا، فهذا سؤال يخصّ ستريكلند حصراً.

عاد بعد مرور ثلاثة أسابيع وقال بهدوء: «لقد قلت الحقيقة يا بييل. الأمر كله وما فيه قد تم اختراعه من أوله إلى آخره. وهذا أمر يدهشني! هذا الوحش المسمى برونكهورست لا يستحق أن يكون على قيد الحياة».

كان هناك صخب وصراخ، وقال بييل: «كيف ستبرهن على ذلك؟ لا يمكنك أن تقول إنك كنت تدخل إلى مجمع مساكن برونكهورست دخولاً غير مشروع متنكراً!»

قال ستريكلند: «كلا. قل لمحاميك الأحمق –كائناً من يكون– أن يلجأ

إلى (الأمور المتأصلة التي لا يمكن احتمالها) و«(التناقضات في الأدلة). لن يضطر إلى الكلام، ولكن هذا سيجعله سعيداً. سأدير أنا هذه القضية كلها».

صمت بييل وانتظر الرجال الآخرون ليروا ما سيحدث. كانوا يثقون بستريكلند كما يثق الرجال بالرجال الهادئين. وحين جرت المحاكمة ازدحمت قاعة المحكمة بالحاضرين. تواجد ستريكلند في شرفة قاعة المحكمة، حتى قابل خادم المائدة المسلم. ثم همهم بتبركة «فقيرية» في أذنه، وسأله عن حال زوجته الثانية. التفت الرجل إليه، وبينما راح ينظرِ في عيني «الصاحب» الذي يدعونه «إستريكن»، فقد أصيب بدهشة كبيرة. عليكم أن تتذكروا أنه قبل أن يتزوج ستريكلند، فقد كان، كما سبق لي وذكرته لكم، صاحب سلطة بين السكان المحليين. همس ستريكلند بمثل عامي فظ المغزى يفيد بأنه كان متماشياً مع جميع ما كان يجري، ثم دخل إلى قاعة المحكمة متسلحاً بسوط مدرَّب وحوش.

كان المسلم هو الشاهد الأول، وابتسم له ستريكلند من مؤخر القاعة. بلّل الرجل شفتيه بلسانه، وراح وهو في خوف مطلق من «الصاحب استريكن» (الفقير الهندي)، يعيد كل تفصيل من تفاصيل شهادته - قال إنه رجل معوز، وأن الرب يشهد على أنه قد نسي كل شيء أمره الصاحب برونكهورست بأن يقوله. وبين رعبه من ستريكلند والقاضي وبرونكهورست، انهار باكياً.

ثم انتشر الرعب بين الشهود. راحت جانكي، الخادمة، تنظر شزراً وبعفة من خلف خمارها، ثم تحول لون وجهها إلى الرمادي، وغادر الحمّال قاعة المحكمة. قال إن أمه كانت تحتضر، وإنه ليس بالأمر المفيد لأي رجل أن يكذب كثيراً في حضور الصاحب استريكن».

قال بييل بتهذيب لبرونكهورست: «لا يبدو أن شهودك نافعون. أليست بحوزتك أي رسائل مزورة تقدمها إلى المحكمة؟» ولكن برونكهورست كان يتململ في كرسيه بشدة، وحلّ صمت كامل بعد أن طُلب من بييل أن يسكت.

شاهد محامي برونكهورست النظرة التي كانت على وجه موكله، ودون المزيد من اللغط، ألقى بأوراقه على الطاولة المغطاة بقماش أخضر اللون، وهمهم بشيء ما حول أنه قد تلقى معلومات غير صحيحة. صفق كل من كان في المحكمة على نحو عاصف، شأن جنود في مسرحٍ، وبدأ القاضي يبدي رأيه.

***

خرج بييل من قاعة المحكمة، ورمى ستريكلند السوط في الشرفة. بعد عشر دقائق كان بييل يوبخ برونكهورست بشدة وحتى الإنهاك خلف زنزانات المحكمة، بهدوء ودون فضيحة. أما ما تبقى من برونكهورست فقد تم إرساله إلى بيته في عربة؛ وقد بكته زوجته ثم رعته حتى عاد ليكون إنساناً.

لاحقاً، وبعد أن ألغى بييل القضية المضادة التي كان قد رفعها على برونكهورست لتلفيقه أدلة مزورة، قالت السيدة برونكهورست بابتسامتها الفاترة والدامعة إن هناك خطأ قد تم ارتكابه، ولكن الذنب لا يعود إلى «تيدي» على الإطلاق. وهي سوف تنتظر حتى يعود تيدي إليها. ربما كان هو قد ملّ منها، أو أنها قد جعلته يفقد صبره، وربما ليس علينا أن نلومها أكثر من ذلك، وربما ستسمح الأمهات لأطفالهن بأن يلعبوا مع «تيدي الصغير» مجدداً. كان يشعر بالوحدة إلى حد كبير. ثم دعا «الموقع» السيدة برونكهورست لتزور كل الأماكن، حتى أصبح السيد برونكهورست جاهزاً للظهور علانية، وذلك حين ذهب إلى البيت

واصطحب زوجته معه. ووفقاً لآخر الأخبار، فإن «تيدي» خاصتها قد عاد إليها فعلاً، وهما سعيدان إلى حد يتصف بالاعتدال؛ على الرغم من أنه بالطبع لن يغفر لها أبداً الهزيمة التي كانت هي وسيلتها غير المباشرة.

***

ما يريد بييل معرفته هو: «لماذا لم اصرّ أنا على اتهامي ضد برونكهورست، وتركته ينجو بفعلته؟»

أما ما تريد السيدة برونكهورست معرفته فهو: «كيف استطاع زوجي أن يحضر مثل ذلك الحصان الأسترالي الجميل الجميل من موقعكم؟ أنا أعرف كل ما يتعلق بشؤونه المالية، وأنا على ثقة من أنه لم يشتر ذلك الحصان».

وما أريد أنا أن أعرفه هو: «كيف تتزوج نساء من أمثال السيدة برونكهورست من رجال شأن السيد برونكهورست هذا؟»

إن أحجيتي هذه هي أكثر الأحجيات الثلاث صعوبة على الإجابة.

١٢- بوابة الأحزان المائة

إن كنتُ أستطيع الوصول إلى الجنة مقابل سعر ما، فلماذا عليك أن تكون حسوداً؟

•(مثل لمدخّن أفيون)

ليس هذا بالأمر الذي قمت أنا بفعله. لقد تحدث صديقي، غابرال ميسكيتا، الهجين النسب، عنه، بين غروب القمر والصباح، قبل ستة أسابيع من وفاته؛ وقد أخذتُ هذا الكلام من فمه حين أجاب على أسئلتي. لذلك...

يقع المكان بين «أخدود النحاسين» و«حيّ بائعي الغلايين» ضمن مسافة مائة ياردة أيضاً، حيث يطير الغراب من «مئذنة مسجد وزير خان». لا يهمني أن أروي لأي شخص كل هذا الكلام، ولكني أتحداه أن يجد «البوابة»، مهما كان يظن بنفسه عارفاً بالمدينة. وربما يمكنك حتى أن تمر عبر الأخدود مائة مرة، ولن تكسب أي معرفة إضافية بالأمر. كنا ندعوه بالأخدود، «أخدود الدخان الأسود»، ولكن اسمه المحلي مختلف تماماً بالطبع. فالحمار المحمل بالبضاعة لا يستطيع المرور بين الجدارين؛ وفي إحدى النقاط، قبل أن تصل بالضبط إلى «البوابة»، فإن واجهة بارزة لأحد البيوت يجعل الناس يمرون من هناك جانبياً.

وهي ليست بالبوابة حقاً على الرغم من كل شيء. إنها دار. وقد حاز عليها «فونغ - تشينغ» العجوز قبل خمس سنوات. كان إسكافياً في كلكوتا. ويقولون إنه قتل زوجته هناك وقد تعتعه السكر. ولهذا السبب فقد تخلى عن شراب الروم السوقي واتجه إلى تعاطي «الدخان الأسود» بدلاً عنه. في وقت لاحق، وصل إلى الشمال وافتتح «البوابة»

كدار تستطيع فيها أن تنال ما تدخنه بسلام وهدوء. عليك أن تلاحظ هنا أنها كانت داراً ممتازة ومحترمة لتدخين الأفيون، وليست واحدة من تلك الأماكن الرخيصة ذات الجو الخانق والحار لتدخين الأفيون، والتي يمكن أن تجدها في جميع أنحاء المدينة. كلا؛ كان هذا الرجل العجوز يعرف مهنته جيداً وكان رجلاً صينياً شديد الاعتناء بالنظافة. كان رجلاً أعور قصير القامة، لا يزيد طوله عن خمسة أقدام، وكان قد فقد الأصبع الوسطى من كلتي يديه. وعلى الرغم من ذلك كله، فأنا لم يسبق لي قط أن رأيت شخصاً أبرع منه في لَف الأقراص السوداء. ولم يكن يبدو عليه أبداً وكأن «الدخان الأسود» يؤثر فيه؛ وكأن ما كان يتناوله نهاراً وليلاً، وليلاً ونهاراً، كان مجرد حيطة يحتاط بها. أنا أمارسها منذ خمس سنوات، وأستطيع أن أدخن كمية جيدة بالتشارك مع أي شخص، ولكني كنت مجرد طفل بالنسبة إلى فونغ – تشينغ في مثل هذا الأمر. وعلى أي حال، كان الرجل العجوز حريصاً على ماله: حريصاً جداً؛ وهذا ما لا أستطيع فهمه. سمعت أنه وفّر الكثير قبل أن يموت، ولكن ابن أخيه قد حاز على كل هذا الآن؛ والرجل العجوز قد عاد إلى الصين ليدفن هناك.

كان يبقي الغرفة الكبيرة العليا، حيث يجتمع أفضل زبائنه، نظيفة كأنها «دبوس» جديد. في إحدى الزوايا كان ينتصب وثن فونغ – تشينغ المسمى «جوس» –وهو قبيح تقريباً بقدر ما كان عليه فونغ– تشينغ من القبح– وكانت هناك دائماً عيدان مشتعلة تحت أنفه؛ ولكنك لم تكن تشم رائحتها إطلاقاً حين تكون الغلايين في حالة توهج. في مواجهة «جوس» كان تابوت فونغ – تشينغ. لقد أنفق مبلغاً كبيراً من مدخراته على ذلك التابوت، وكلما كان يدخل رجل جديد إلى «البوابة»، كان يتم تعريفه به. كان مطلياً باللون الأسود مع كتابات

عليه باللونين الأحمر والذهبي، وقد سمعت أن فونغ – تشينغ اشتراه من الصين وتم نقله إليه من هناك. لا أعرف إن كان هذا صحيحاً أم لا، ولكني أعرف أنني لو كنت أول من يصل مساءً، فقد اكان من عادتي أن أفرش حصيرتي تحت قدميه مباشرة. كان ذلك ركناً هادئاً، كما ترى، وكان نوع من النسيم القادم من الأخدود يدخل عبر النافذة بين الحين والآخر. وبالإضافة إلى الحصر، لم يكن هناك من أثاث آخر في الغرفة – التابوت فحسب، و«جوس» العجوز الأخضر والأزرق والأرجواني اللون مع القِدم والصقل.

لم يقلِ لنا فونغ – تشينغ أبداً لماذا كان يسمي هذا المكان «بوابة الأحزان المائة». (كان هو الصيني الوحيد الذي عرفته والذي كان يستخدم أسماء خيالية ذات معنى يوحي بالشر. كانت معظم أسمائهم تتعلق بالزهور. كما يمكنك أن ترى ذلك في كلكوتا.) اعتدنا أن نكتشف ذلك بأنفسنا. لا شيء تحبه وتعتاد عليه لو كنت أبيض البشرة، شأن «الدخان الأسود». الرجل الأصفر مختلف. لا يترك الأفيون أي أثر عليه؛ إلا أن البيض والسود البشرة يعانون الكثير. بالطبع هناك بعض الأشخاص لا يؤثر فيهم الأفيون أكثر مما يفعل التبغ في البداية. إنهم يغفون قليلاً، كما يغفو الانسان بشكل طبيعي، وفي صباح اليوم التالي يكونون جاهزين للعمل تقريباً. لقد كنت واحداً من هذا الصنف من البشر حين بدأت، ولكني أمارسه باستمرار منذ خمس سنوات، واختلف الأمر الآن. كانت لي عمة عجوز تعيش في مدينة «أغرا»، وقد أورثتني بعض المال عند وفاتها. وكان ذلك عبارة عن ستين روبية في الشهر. الستون روبية ليست بالمبلغ الكبير. أستطيع أن أتذكر فترة من الزمن –تبدو بعيدة مئات ومئات من السنين– حين كنت أنال ثلاثمائة روبية في الشهر مع بعض العائدات، وذلك حين كنت موظفاً لدى شركة

أخشاب كبرى في كلكوتا.

لم أستمر طويلاً في تلك الوظيفة. إن «الدخان الأسود» لا يسمح لك بأن تنخرط كثيراً في ممارسة عمل آخر؛ وعلى الرغم من أني لم أكن أتأثر إلا قليلاً به، إلا أني لم أعد أستطيع العمل ولو ليوم واحد لأنقذ حياتي. وعلى أي حال، كانت الستين روبية هي ما كنت في حاجة إليه. وحين كان فونغ – تشينغ العجوز حياً، فقد اعتاد أن يقبض هذا المبلغ عني، ويعطيني حوالي نصفه لأتعيش به (كان طعامي زهيداً)، ويحتفظ بالباقي لنفسه. كنت حراً في التواجد في «البوابة» في أي وقت من النهار أو الليل، لذلك لم أكترث. كنت أعرف أن الرجل العجوز كان يربح جيداً مني؛ ولكني لم أكن مكترثاً بذلك. لم يكن هناك ما هو مهم جداً لي. وإضافة إلى ذلك، كان المال يصل دائماً كل شهر.

حين افتتحت «البوابة» في البداية، كنا عشرة زبائن. أنا واثنان من السادة الهنود من موظفي المكتب الحكومي في مكان ما في «أناركولي»، ولكنهما طردا من العمل ولم يعودا قادرين على الدفع (لا يوجد رجل مضطر للعمل في النهار أن يمارس تعاطي «الدخان الأسود» لأي فترة من الزمن على نحو متواصل)؛ وكان هناك رجل صيني هو ابن شقيق فونغ – تشينغ؛ وامرأة من البازار كانت تملك الكثير من المال الذي حصلت عليه بطريقة ما؛ ومتبطل إنكليزي اسمه يبدأ بـ «ماك» ولا أذكر التتمة، على ما أظن، ولكني نسيت... وكان هذا يدخن كميات كبيرة، ولا يبدو عليه أنه يدفع أي شيء (قالوا إنه أنقذ حياة فونغ – تشينغ أثناء محاكمة جرت في كلكوتا حين كان يعمل كمحام في المحاكم العليا)؛ وكان هناك شخص أورو – أسيوي آخر، شأني أنا، قادم من مدراس، وامرأة هجينة واثنان من الرجال قالا إنهما قدما من الشمال. وأعتقد أنهما كانا فارسيين أو أفغانيين أو ما شابه ذلك. لم

يعد منّا على قيد الحياة سوى خمسة فحسب، ولكننا نحضر بانتظام. لا أعرف ما جرى للسيدين الهنديين؛ ولكن امرأة البازار توفيت بعد ستة أشهر من افتتاح «البوابة»، وأعتقد أن فونغ – تشينغ أخذ منها أساورها وحلقة أنفها الذهبية. ولكني لست متأكداً. أما الإنكليزي فكان يشرب ويدخن أيضاً، وقد غفا ذات مرة ولم يستيقظ. قُتل واحد من الشخصين الفارسيين خلال شجار جرى في الليل قرب البئر الكبيرة القريبة من المسجد قبل فترة طويلة من الزمن، وقد أغلقت الشرطة البئر، لأنهم قالوا إنها ذات رائحة كريهة. وقد وجدوه ميتاً في قعر البئر. إذاً، كما ترون لم يتبق سواي والشخص الصيني والمرأة الهجينة التي نسمّيها «ميمصاحب»(9) (اعتادت أن تسكن مع فونغ – تشينغ)، والأور – أسيوي الآخر، وأحد الفارسيين. تبدو الميمصاحب عجوزاً جداً الآن. أعتقد أنها كانت شابة حين افتتحت «البوابة»؛ ولكننا كلنا عجائز فيما يخص هذا الأمر. أعمارنا مئات ومئات من السنين. من الصعب جداً حساب الزمن في «البوابة»، وإضافة إلى ذلك، فإن الزمن أمر لا يهمني. أنا أحصل على الستين روبية خاصتي بانتظام كل شهر. ومنذ زمن بعيد جداً جداً، حين اعتدت أن أحصل على ثلاثمائة وخمسين روبية في الشهر ومعها عائدات أيضاً، وكنت أعمل في شركة أخشاب كبيرة في كلكوتا، فقد كان لديّ زوجة من نوع ما. ولكنها متوفية الآن. قال الناس إني قتلتها بسبب إدماني على «الدخان الأسود». ربما فعلت ذلك، ولكن حدث الأمر منذ زمن بعيد، لذلك فهو لا يهم. حين قدمت إلى «البوابة» في البداية، اعتدت أن أشعر بالأسف لذلك؛ ولكن انتهى هذا كله منذ زمن طويل، وأنا أنال الستين روبية خاصتي كل شهر، وأنا سعيد تماماً. لست سعيداً بسبب «السكر»، إنما أنا على الدوام هادئ ومرتاح ومطمئن.

كيف أدمنت على ذلك؟ بدأ الأمر في كلكوتا. اعتدت أن أجرب تدخينه في بيتي، لمجرد أن أرى كيف هو الأمر. لم أكن أبالغ في ذلك، ولكني أعتقد أن زوجتي توفيت في تلك الآونة. وعلى أي حال، وجدت نفسي هنا، وتعرفت على فونغ - تشينغ. لا أتذكر جيداً كيف حصل الأمر؛ ولكنه حكى لي عن «البوابة» واعتدت أنا الذهاب إلى هناك، وعلى نحو ما، لم أتخل عن الذهاب إلى هناك منذ ذلك الحين. عليكم أن تنتبهوا أيضاً إلى أن «البوابة» كانت مكاناً محترماً في أيام فونغ - تشينغ، حيث كان بإمكانك أن تكون مرتاحاً، ولا يشبه ذلك على الإطلاق تلك الأمكنة الرخيصة «شاندو - خانا» حيث يرتادها الزنوج. كلا؛ كانت نظيفة وهادئة وليست مزدحمة. طبعاً، كان هناك رواد آخرون بالإضافة إلينا نحن الزبائن العشرة وصاحب المكان؛ ولكن كان لكل واحد منا حصيرته، مع غطاء رأس صوفي، وكل شيء مكسو بصور تنانين وأشياء سوداء وحمراء، شأن التابوت الذي في الركن.

مع انتهاء الغليون الثالث للزبون، كانت التنانين تتحرك وتتقاتل. لقد راقبتها مرات ومرات لا تحصى ليالي بطولها. اعتدت أن أنظم تدخيني على ذلك النحو، والآن أحتاج إلى اثني عشر غليوناً حتى أجعل التنانين تتحرك. وإضافة إلى ذلك، فهي كلها الآن ممزقة وقذرة، شأن الحصر، كما أن فونغ - تشينغ العجوز قد مات. لقد لقي حتفه قبل عامين، وأهداني الغليون الذي أستعمله الآن على الدوام، وهو فضّي، وقد نقشت عليه وحوش تزحف صاعدة نازلة فوق الزجاجة التي تكون تحت الكوب. قبل ذلك، أظن أني كنت أستعمل غليوناً كبيراً من قصب البامبو وله كوب نحاسي صغير جداً، وفم من اليشب الأخضر اللون. كان أثخن قليلاً من العكاز، وكان التدخين به عذباً جداً. بدا لي أن قصب البامبو كان يمتص الدخان. الفضي لا يمتص الدخان، وعليّ أن

أنظفه بين الحين والآخر، وهذا يتطلب مني الكثير من الجهد، ولكني أدخن به لأجل ذكرى الرجل العجوز. لا بد وأنه قد كسب ثروة مني، ولكنه كان يعطيني دائماً حصراً ووسائد نظيفة، وأفضل أفيون يمكن لك أن تحصل عليه في أي مكان.

حين توفي، فإن ابن شقيقه واسمه «تسين – لينغ» قد ورث «البوابة»، وقد أسماها «معبد الممتلكات الثلاثة»؛ ولكن نحن الزبائن القدامى ما نزال نسميها «بوابة الأحزان المائة» دون تغيير. وابن الشقيق هذا يتصرف على نحو رديء، وأعتقد أن «الميمصاحب» تمد له يد العون، فهي تسكن معه، كما اعتادت أن تفعل مع الرجل العجوز. وهما يسمحان لكل الأنواع من الشخاص الرديئين بالدخول، من زنوج وغيرهم، كما أن «الدخان الأسود» لم يعد جيداً كما كان فيما مضى. لقد وجدت نخالة محترقة في غليوني المرة تلو الأخرى. كان من شأن الرجل العجوز أن يموت لو حدث أمر كهذا في أيامه. وإضافة إلى ذلك، فإن الغرفة لم تعد تنظَّف إطلاقاً، كما أن جميع الحصر قد أصبحت ممزقة ومقطعة عند الحواف. والتابوت لم يعد موجوداً –لقد عاد إلى الصين مرة أخرى– مع الرجل العجوز وأوقيتين من الأفيون في داخله، في حال أنه قد يحتاج إليهما خلال المسير.

لم يعد «جوس» ينال الكثير من العيدان التي تحرق تحت أنفه كما اعتاد في الماضي؛ وهذه علامة من علامات الشؤم أكيدة كما هو «الموت». لقد أصبح بني اللون، ولم يعد أحد يهتم به إطلاقاً. وهذا يعود إلى «الميصاحب»، وأنا أعرف ذلك؛ لأنه حين حاول تسين – لينغ أن يحرق ورقاً مذهباً أمامه، قالت إن في ذلك هدراً للنقود، ولو أبقى عوداً يحترق ببطء شديد، فإن «جوس» ما كان ليعرف الفرق. لذا أصبحنا نحصل الآن على العيدان ممزوجة بالكثير من الصمغ، وهي

تستغرق نصف ساعة إضافية لتحترق، كما أنها تعطي رائحة كريهة؛ هذا إذا ما تغاضينا عن رائحة الغرفة ذاتها. لا يمكن لأي تجارة أن تنجح لو جرت مثل هذه الأمور. كما أن «جوس» لا يحب ما يجري. أستطيع أن أرى ذلك. أحياناً، وفي وقت متأخر من الليل، يبدأ بالتلوّن بكل أنواع الألوان -الأزرق منها والأخضر والأحمر- كما اعتاد أن يفعل حين كان فونغ - تشينغ العجوز ما يزال حياً. كما كان يقلّب عينيه ويدوس بقدميه بقوة كشيطان.

لا أعرف السبب في أني لا أغادر هذا المكان وأمارس التدخين بهدوء في غرفةٍ صغيرة تخصني في البازار. على الأرجح، فإن تسين - لينغ سيقتلني لو مضيت بعيداً -فهو يستلم الستين روبية خاصتي الآن- وإلى جانب ذلك، فهناك الكثير من الصعوبات، كما أني أصبحت مغرماً بـ «البوابة». لم تعد هي بالشيء الذي يلفت النظر. ليست كما كانت في أيام الرجل العجوز، لكني لم أستطع التخلي عنها. رأيت الكثيرين ممن يدخلون ويخرجون. ورأيت الكثيرين يموتون هنا فوق الحصر، حتى أني لأخشى أن أموت في العراء الآن. لقد شاهدت أشياء يمكن للناس أن يسموها على أنها غريبة بما فيه الكفاية؛ ولكن لا شيء يعتبر غريباً وأنت تتعاطى «الدخان الأسود»، باستثناء «الدخان الأسود». ولو كان الأمر غريباً بالفعل، فلا بأس. لقد اعتاد فونغ - تشينغ أن يكون شديد الحرص في اختيار زبائنه، ولم يكن يقبل إطلاقاً أي شخص يمكن أن يتسبب في المصاعب، كأن يموت على نحو مثير للفوضى وما شابه. ولكن ابن شقيقه لم يكن حريصاً كعمه إلى هذا الحد ولا حتى إلى نصفه. كان يقول في كل مكان إنه يدير داراً «من الدرجة الممتازة». ولكنه لم يكن يدخل الزبائن بهدوء ويوفر لهم الراحة كما كان من شأن فونغ - تشينغ أن يفعل. لذلك، فإن «البوابة» أصبحت أكثر شهرة بقليل

مما كانت عليه. وكانت هذه الشهرة قد انتشرت بين الزنوج بالطبع. لم يكن ابن الشقيق يجرؤ على الحصول على زبون أبيض البشرة، أو على شخص هجين في «البوابة» الآن. كان مضطراً إلى استبقائنا نحن الثلاثة بالطبع - أنا والميمصاحب والأور - أسيوي الآخر. نحن من الأشياء الثابتة في المكان. ولكنه ما كان يثق بنا أن نعبئ ولو غليوناً واحداً... إطلاقاً.

آمل أن أموت، في واحد من تلك الأيام، في «البوابة». الفارسي والمدراسي أصبحا شديدي التداعي والارتعاش الآن. وأصبح لديهما الآن غلام يشعل لهما غليونيهما. أنا أشعل غليوني بنفسي دائماً. هناك احتمال كبير بأني سأراهما يُحملان قبلي إلى الخارج. لا أعتقد أني سأعمّر أكثر من الميمصاحب أو تسين - لينغ. النساء يعشن حياة أطول من الرجال في «الدخان الأسود»، وقد ورث تسين - لينغ الكثير من مزايا الرجل العجوز على الرغم من أنه يدخن أفيوناً رخيص الثمن. لقد عرفت امرأة البازار موعد موتها قبل يومين من حدوثه؛ وقد ماتت فوق حصيرة نظيفة مع وسادة محشوة بأناقة، وعلّق الرجل العجوز غليونها فوق «جوس» تماماً. أتخيل أنه كان مغرماً بها على الدوام. ولكنه أخذ أساورها هي أيضاً.

أود أن أموت مثل ميتة امرأة البازار... فوق حصير نظيف بارد مع غليون من الأفيون الجيد بين شفتيّ. حين أشعر أني راحل، سوف أطلب من تسين - لينغ الحصول على تلك الأشياء، ويمكنه أن ينال الستين روبية خاصتي مرة كل شهر، طالما أراد ذلك. عندئذ، سأتمدد بهدوء وراحة، وأراقب التنانين السوداء والحمراء وهي تتقاتل للمرة الأخيرة؛ ثم...

حسناً، لا يهم. لا يوجد هناك أي شيء يثير اهتمامي... كل ما أرغب

فيه ألا يضع تسين – لينغ النخالة في «الدخان الأسود».

---

(9)-الميمصاحب هو لقب النساء الإنكليزيات أو الأوربيات في الهند، وتلفظ «ميمساهيب». (المترجم)

١٣- حكاية محمد دين

من هو الرجل السعيد؟ إنه ذاك الذي يرى في بيته أطفالاً صغاراً متوجين بالغبار، يتقافزون ويقعون ويبكون.

•مونيتشاندرا

(ترجمة البروفسور بيترسون)

كانت كرة البولو قديمة، تعلوها الندوب والشقوق والانبعاجات. كانت موضوعة فوق رف المدفأة بين غلايين كان إمام دين، الخادم، ينظفها من أجلي.

قال إمام دين بلطف: «هل يريد سيدي ابن السماء هذه الكرة؟»

لم تكن «ابن السماء» تلك تحمل أي معنى يتضمن التقديس؛ ولكن ماذا يريد خادم من كرة بولو؟

«لو تكرمت يا سيدي، فإن لديّ ابن صغير. وقد رأى هذه الكرة، وهو يرغب في أن يلعب بها. لا أريدها لشخصي».

ما كان يمكن لأي شخص -ولو للحظة واحدة- أن يتهم إمام دين البدين والعجوز بأنه يريد أن يلعب بكرات البولو. ثم أنه أخرج تلك الكرة المعطوبة إلى الشرفة. وبعد ذلك سُمع إعصار من الزعيق المرح، ووقع قدمين صغيرتين، وصوت ضرب الكرة على الأرض. من الواضح أن الابن الصغير كان ينتظر خارج الباب ليحوز على كنزه. ولكن كيف تمكن من رؤية كرة البولو؟

في اليوم التالي، وبينما كنت عائداً من مكتبي قبل نصف ساعة من الموعد المعتاد، أدركت وجود جسم صغير في غرفة الطعام - جسم صغير ممتلئ في قميص غير ملائم إلى حد مضحك كان يهبط على

الأرجح حتى منتصف البطن السمين. كان يتجول في أنحاء الغرفة وإبهامه في فمه، يدندن لنفسه وهو يجرد مجموعة الصور. لا شك أن هذا هو «الابن الصغير».

لم يكن له أي شأن خاص بغرفتي، طبعاً؛ ولكنه كان منهمكاً إلى حد عميق في اكتشافاته حتى أنه لم يلحظ وجودي إطلاقاً وأنا واقف عند الباب. دخلت إلى الغرفة وأجفلته إلى حد كبير. جلس على الأرضية وهو يشهق. فتح عينيه ثم فمه. كنت أعرف ما سيلي ذلك، وهربت يلحقني عواء طويل جاف وصل إلى مقر الخدم على نحو أسرع من أي أمر سبق أن صدر عني. خلال عشر ثوان كان إمام دين في غرفة الطعام. ثم علت أصوات بكاء يائس، وعدت لأجد إمام دين يعاتب الخاطئ الصغير الذي كان يستخدم معظم قميصه كمنديل.

قال إمام دين بحصافة: «هذا الصبي ملعون، ملعون جداً. سيذهب دون شك إلى السجن بسبب سلوكه». المزيد من الصراخ من التائب، واعتذار مفصل قدمه إليّ إمام دين.

قلت: «قل للطفل بأن (الصاحب) ليس غاضباً وأبعده من هنا». أبلغ إمام دين الطفل المذنب بأني سامحته، وكان هذا قد جمع قميصه كله الآن من حول عنقه، وكأنه وتر آلة موسيقية، وتحول الصراخ إلى بكاء. انطلقا كلاهما نحو الباب. قال إمام دين: «اسمه محمد دين وهو ملعون»، وكأن هذا الاسم جزء من الجريمة. وبما أن محمد دين قد أصبح بعيداً عن الخطر، فقد التفت إليّ وهو بين ذراعي والده وقال بوقار: «صحيح أن اسمي هو محمد دين يا «تاهب»، ولكني لست ملعوناً. أنا إنسان».

منذ ذلك اليوم بدأت معرفتي بمحمد دين. لم يدخل غرفة طعامي مرة أخرى، ولكن في الأرض المحايدة للحديقة، كنا نحيي واحدنا الآخر

بالكثير من الاهتياج على الرغم من أن هذه التحية كانت تقتصر على: «تلام تاهب» من جانبه، و «سلام يا محمد دين». ويومياً، لدى عودتي من مكتبي، كان القميص الأبيض الصغير والجسم البدين الصغير قد اعتادا أن ينهضا من ظل التعريشة المغطاة بالنباتات المتسلقة حيث يكون هو مختبئاً؛ ويومياً، كنت أوقف حصاني هناك، حتى لا يتم التغاضي عن تحيتي أو أن تقدم على نحو غير لائق.

لم يكن لدى محمد دين أي رفاق. اعتاد أن يعدو من حول المجمع السكني، ويدخل إلى ما بين شجيرات زيت الخروع ثم يخرج منها، في مهمات غامضة خاصة به. في أحد الأيام تعثرت ببعض أعماله اليدوية في مكان بعيد في الحديقة المحيطة بالمبنى. لقد دفن كرة البولو حتى منتصفها في الرمل، وغرس ست زهور ذابلة من زهور القطيفة في دائرة من حولها. خارج الدائرة، كان هناك مربع بسيط، وكان معلّماً بكسرات من الآجر الأحمر تتناوب مع كسرات من الخزف الصيني؛ وكان هذا كله محاطاً بضفة صغيرة من التراب. توسل الساقي المسؤول عن البئر دفاعاً عن المهندس الصغير قائلاً إنه مجرد عبث لطفل ولم يشوه الحديقة.

والرب يعرف أني لم أكن أنوي إطلاقاً أن ألمس عمل الطفل في ذلك الحين أو في وقت لاحق؛ ولكن حدث في ذلك المساء أن تمشيت في الحديقة فتعثرت به دون أن أدري. وهكذا دست، قبل أن أدري، على رؤوس أزهار القطيفة، والضفة الترابية وكسرات من صحن حساء محطم، فتلخبطت كلها بحيث لم يعد ممكناً إعادتها كما كانت. في صباح اليوم التالي، وجدت الطفل محمد دين يبكي برقة وحيداً وهو واقف فوق الخراب الذي سببته له. كان شخص ما قد قال له بأسلوب عديم الرأفة بأن «الصاحب» كان غاضباً جداً منه لأنه أفسد له حديقته

وأنه بعثر له تلك النفاية خاصته وكان خلال ذلك يتلفظ بكلام رديء. عمل محمد دين لساعة كاملة وهو يحاول إزالة كل أثر للضفة الترابية وكسرات الفخار والخزف، وقال لي بعينين دامعتين ووجه مشوب بالاعتذار: «تلام يا تاهب»، حين عدت من المكتب. وبعد عملية تحقيق سريعة توصلنا إلى أن إمام دين قال لمحمد دين بأني منحته الإذن بأن يلهو كما يشاء وذلك بلفتة عطف خاصة من جانبي. وعندها تشجع الطفل وراح ينشئ صرحاً أهم بكثير من سابقه الذي كان عبارة عن كرة بولو وأزهار القطيفة.

خلال الأشهر التي تلت كان الطفل الصغير البدين غريب الأطوار يدور في فلكه المتواضع بين شجيرات زيت الخروع وفي التراب. وكان يبني باستمرار قصوراً فخمة من زهور ذابلة رماها حاملها، وبعض الحصى المصقول الذي اهترأ بفعل الماء، وقطع من الزجاج المكسور، والريش المنتوف، كما أتصور، من طيوري. وكان وحيداً على الدوام ويدندن لنفسه.

في أحد الأيام أسقطت صدفة بحرية مبقعة بألوان مرحة قرب آخر أبنيته؛ وقد توقعت أن محمد دين سيبني شيئاً أروع من المعتاد فوقها. ولم يخب ظني. تأمّل لحوالي ساعة من الزمن، وتحولت دندنته إلى أغنية شديدة الابتهاج. ثم بدأ يرسم خطوطاً في التراب. سيكون ذلك قصراً مدهشاً، فقد كان طوله ياردتين وعرضه ياردة واحدة، كما يتبين من خطته. ولكن هذا القصر لم يكتمل أبداً.

في اليوم التالي لم يكن محمد دين موجوداً عند نهاية درب العربات، ولم أسمع «تلام يا تاهب» ترحب بي عند عودتي. كنت قد اعتدت على سماع هذه التحية، وقد أثار غيابها قلقي. في اليوم التالي قال لي إمام دين إن الطفل كان يعاني من حمى خفيفة وكان في حاجة إلى تناول

الكينين. وقد تم إحضار الدواء له وعرضه على طبيب إنكليزي.

قال الطبيب وهو يغادر مقر سكن إمام الدين: «ليست لديهم القدرة على الاحتمال، هؤلاء الأطفال».

بعد أسبوع، وعلى الرغم من أني كنت مستعداً لمنح أي شيء حتى أتجنب ذلك، إلا أني قابلت على الطريق إلى مقبرة المسلمين إمام دين يرافقه صديق واحد، وهو يحمل بين ذراعيه ملفوفاً بقماش أبيض، كل ما تبقى من محمد دين الصغير.

١٤- بموجب قوة الشبه

إذا تحطمت مرآتك، انظر في الماء الساكن؛ ولكن فلتكن حريصاً على ألا تقع فيه.

•(مثل هندي)

بعد ارتباط ملزم، فإن واحداً من أكثر الأمور ملاءمة يستطيع الشاب أن يحمله معه في بداية سيرته المهنية هو ارتباط غير ملزم. إنه يشعره بأنه هام وعملي وسئم من الملذات ومتهكم. وكلما عانى من مرض في الكبد، أو من افتقار إلى التمرينات، يستطيع أن يندب حبه الضائع، وأن يكون سعيداً جداً بأسلوب رقيق ومتضائل.

كانت قضية حب «هاناسايد» صدفة سعيدة بالنسبة إليه. كان قد مضى عليها أربع سنوات، وقد تخلت الفتاة عن التفكير فيها منذ زمن طويل. فهي قد تزوجت وأصبحت لديها اهتماماتها الخاصة بها. في البداية، كانت قد قالت لهاناسيد ما يلي: «طالما أنها لا تستطيع سوى أن تكون مجرد شقيقة له، فهي ستكون مهتمة دائماً وبعمق في أن يكون بخير وسعيداً». وهذه ملاحظة جديدة وأصيلة منحت هاناسايد شيئاً ما يفكر فيه مدة عامين؛ كما أن غروره قد وجد ما يملأه خلال الأشهر الأربعة والعشرين الأخرى. كان هاناسايد مختلفاً تماماً عن «فيل غارون»، ولكن، ومع ذلك، كانت لديه نواح كثيرة مشتركة مع ذلك الشخص المحظوظ جداً وإلى حد أكبر منه بكثير.

أبقى ارتباطه غير الملزم معه كما يبقي الرجال غليوناً جيداً قديماً... وذلك من أجل الشعور بالراحة، ولأنه أصبح عزيزاً خلال الاستعمال. وقد جعله ذلك يمضي فصلاً سعيداً واحداً في سيملا. لم يكن هاناسايد محبباً إلى النفس. كانت هناك فجاجة في سلوكه، وخشونة في

الطريقة التي يساعد فيها سيدة ما على امتطاء حصانها، وهذا ما لم يكن يجعله جذاباً للجنس الآخر؛ حتى لو أيدهن، وهو أمر لم يكن يفعله. لقد أبقى قلبه الجريح سراً بينه وبين نفسه ولفترة طويلة.

ثم جاءته المشاكل. كل من يذهب إلى سيملا يعرف ذلك المنحدر الهابط من مكتب التلغراف إلى مكتب الأشغال العامة. كان هاناسايد يصعد التل متسكعاً في صباح أحد أيام شهر أيلول (سبتمبر) بين ساعات الزيارة، حين وصلت عربة «ريكشو»(10) هابطة بسرعة، وفي العربة كانت تجلس الصورة الحيّة للفتاة التي سببت له كل تلك التعاسة. إتكأ هاناسايد على الدرابزين وراح يتنفس بصعوبة. أراد أن يعدو هابطاً التل خلف العربة، ولكن كان ذلك مستحيلاً؛ لذلك تابع السير وقد تجمع معظم دمه في صدغيه. كان أمراً مستحيلاً، ولأسباب كثيرة، أن تكون المرأة التي في العربة هي الفتاة التي كان يعرفها. وقد كانت، كما اكتشف لاحقاً، زوجة رجل من «ديندیغول»، أو من «كويمباتور»، أو من مكان بعيد ما، وهي قد وصلت إلى سيملا في بداية الموسم من أجل صحتها. وهي ستعود إلى ديندیغول أو البلدة التي جاءت منها في نهاية الموسم؛ ومن المحتمل جداً ألا تعود إلى سيملا مجدداً، فالموقع الجبلي خاصتها كان «أوتاكاموند». في تلك الليلة، فإن هاناسايد، الذي كان يشعر بالألم والغضب لأنه عاد ليعيش تجربة كل تلك المشاعر القديمة، شاور نفسه لساعة كاملة. وما قرره هو هذا؛ وعليك أن تقرر بنفسك كم كانت عاطفته حقيقية فيما يخص قصة الحب القديم تلك، وكم أثرت على هذا القرار نزعة طبيعية جداً إلى أن يغادر وطنه وأن يمتع نفسه. لم تكن «السيدة لانديس - هاغارت» ستعبر طريقه مجدداً ضمن أي احتمال. لذا فإن أي عمل سيقوم به لن يكون مهماً. كانت تشبه إلى حد عجيب الفتاة التي «كانت

مهتمة بعمق» به، وبقية الجملة التي قالتها له. وإذا أخذنا كل شيء في الاعتبار، سيكون أمراً مثيراً للسرور أن يتعرف على السيدة لانديس - هاغارت، وأن يصدق ولو لفترة قصيرة -لفترة قصيرة جداً- أنه مع «أليس تشيزاين» مجدداً. كل شخص منا مجنون تقريباً فيما يخص ناحية من النواحي. كان الهوس الوحيد الخاص بهاناسايد هو حبه القديم، حبه لأليس تشيزاين.

وقد بذل قصارى جهده ليتم تقديمه إلى السيدة لانديس - هاغارت، وقد نجح التقديم. كما بذل جهده ليتمكن من مشاهدة هذه السيدة لأطول فترة ممكنة. وحين يكون رجل ما تواقاً إلى المقابلات، فإن ما تعرضه سيملا من تسهيلات كانت مذهلة. فهناك حفلات الحديقة وحفلات التنس، والنزهات، وحفلات الغداء في أنانادال، ومسابقات الرمي بالبندقية، وحفلات العشاء والحفلات الراقصة؛ هذا إلى جانب مناسبات الرحلات على ظهور الخيل والمشاوير مشياً على الأقدام، وهي مسائل تحتاج إلى ترتيبات خصوصية. كان هاناسايد قد بدأ وفي نيته أن يرى إن كان هناك شبه، وانتهى بأن فعل ما هو أكثر بكثير من ذلك. كان يريد أن يتم خداعه، وقد خدع نفسه بكل ما في الكلمة من معنى. لم يكن الوجه والجسد هما وجه وجسد أليس تشيزاين فحسب، بل كان الصوت والنبرات الأخفض من كلامها هي نفسها بالضبط، وكذلك كان أسلوبها في الحديث؛ كما كانت عاداتها الصغيرة التي تتحلى بها كل امرأة، وطريقتها في المشي والإيماء مطابقة تماماً وعلى نحو مطلق لعادات وطريقة أليس في المشي والإيماء. التفاتة الرأس كانت هي نفسها أيضاً. النظرة المتعبة في العينين في نهاية مشوار طويل مشياً على القدمين كانت هي نفسها. الانحناء والالتواء فوق سرج الحصان للتمكن من ركوبه كانا هما الأمر نفسه. وفي إحدى

المرات، وكان ذلك هو أروع الأشياء إطلاقاً، كانت السيدة لانديس – هاغارت تغني لنفسها في الغرفة التالية، بينما كان هاناسايد ينتظر حتى يصطحبها في رحلة على الخيل، فدندنت أغنية «الشخص المسكين الهائم» بالطريقة نفسها وبالرعشة الصادرة عن الحلق نفسها في البيت الثاني من الأغنية، وبالضبط كما دندنتها أليس تشيزاين لهاناسايد في الغسق في غرفة جلوس في إنكلترا. أما في المرأة الحقيقية نفسها –في روحها– فلم يكن هناك أي تشابه على الإطلاق، فقد كانت هي وأليس تشيزاين قد صُبّتا في قالبين مختلفين. ولكن كل ما كان هاناسايد يريد أن يعرفه ويراه ويفكر فيه كان هذا التشابه المثير للجنون والحيرة، وذلك في الوجه والصوت والأسلوب في الكلام والحركة. كان مصراً على أن التحامق بهذه الطريقة، ولم يكن خائب الرجاء أبداً.

التفاني الصريح والواضح من أي نوع من قبل رجل يكون دائماً أمراً سائغاً بالنسبة إلى أي امرأة؛ ولكن السيدة لانديس – هاغارت، كونها امرأة متمرسة بأمور الدنيا، لم تكترث كثيراً بإعجاب هاناسايد بها.

كان مستعداً لتحمل أي كمية من العناء –كان شخصاً أنانياً بطبعه– وذلك ليلبي ويحقق، إن أمكن ذلك، رغباتها. كان أي شيء تقوله له يصبح قانوناً بالنسبة إليه. وكان –دون أي شك في ذلك– مغرماً بصحبتها طالما كانت تكلمه، وتستمر في الكلام عن أمور تافهة. ولكن حين بدأت في التعبير عن وجهات نظرها الشخصية وأخطائها، فإن تلك الاختلافات الاجتماعية الصغيرة التي تشكل نكهة حياة سيملا، لم يكن هاناسايد لا بالمسرور ولا بالمهتم بها. لم يكن راغباً في معرفة أي شيء عن السيدة لانديس – هاغارت، أو عن تجاربها في الماضي –لقد سبق لها وسافرت في جميع أنحاء العالم تقريباً، وكانت قادرة على

التكلم ببراعة- بل كان يريد أن يكون الشبه مع أليس تشيزاين ماثلاً أمام عينيه، وأن يسمع صوتها بأذنيه. وأي شيء عدا ذلك كان يذكره بشخصية أخرى كان ينفّره، وكان ذلك يبدو عليه.

تحت مبنى مكتب البريد الجديد، حدث في أحد الأمسيات، أن التفتت إليه السيدة لانديس - هاغارت، وعبّرت عما في خاطرها بإيجاز ودون تحذير. قالت: «يا سيد هاناسايد، هل لك أن تتلطف بما فيه الكفاية وتشرح لي السبب في أنك عيّنت نفسك «مرافقاً شهماً»(11) لي؟ لا أفهم هذا الأمر. ولكني واثقة تماماً، على نحو ما أو آخر، أنك لا تهتم بشأني إطلاقاً». وهذا يبدو أنه يدعم، بالمناسبة، النظرية التي تقول إنه لا يوجد رجل يستطيع أن يكذب على امرأة بالفعل أو القول دون أن يتم كشفه. فوجئ هاناسايد تماماً. ولم يكن دفاعه قوياً، لأنه كان يفكر على الدوام بنفسه، فتلفظ بدون تفكير، وقبل أن يعرف ما كان يقوله، بهذا الجواب السريع: «ولن أهتم بعد الآن».

أثارت غرابة الموقف والجواب ضحك السيدة لانديس - هاغارت. ثم اتضح كل شيء. وفي نهاية تفسير هاناسايد الواضح، قالت السيدة لانديس - هاغارت بأقل قدر من الازدراء في صوتها: «إذاً عليّ أن أتصرف كهيكل للجسم البشري(12) لتقوم أنت بتعليق خرق عواطفك المهترئة عليه، أليس كذلك؟»

لم يعرف هاناسايد الجواب المطلوب على هذا السؤال، فكرّس نفسه عموماً وبغموض لمديح أليس تشيزاين، وكان هذا جواباً غير مرضٍ. والآن تم توضيح الأمر له تماماً وبكل ما في الكلمة من معنى: أن السيدة لانديس - هاغارت ليست مهتمة إطلاقاً البتة بهاناسايد.

فليس من الممكن.... أبداً، أن ترضى امرأة بأن تكون محبوبة كبديل عن أخرى... وخاصة أن يكون ذلك بالنيابة عن إلهة بالية مضى على نهاية حكايتها أربع سنوات.

لم ير هاناسايد أنه قد عرض نفسه لسوء الشهرة. كان سعيداً أنه وجد روحاً متعاطفة في القفار القاحلة لسيملا.

وحين انتهى الموسم، مضى هاناسايد إلى مكانه ومضت السيدة لانديس – هاغارت إلى مكانها. قال هاناسيد لنفسه: «كان الأمر أشبه بمطارحة شبح الغرام، ولا يهمني هذا الأمر. والآن سأعود إلى عملي». ولكنه وجد نفسه يفكر باستمرار بشبح هاغارت – تشيزاين؛ ولم يستطع التأكد فيما إذا كانت هاغارت أو تشيزاين هي التي شكّلت الجزء الأكبر من الشبح الجميل.

***

وقد توصل إلى الفهم بعد شهر من ذلك.

هناك ميزة خاصة بهذه البلاد العجيبة ألا وهي كيفية قيام حكومتها القاسية القلب بنقل الرجال من أحد أطراف هذه الإمبراطورية إلى طرفها الآخر. لا يمكنك أن تكون واثقاً على الإطلاق من التخلص من صديق أو عدو حتى يموت هذا الصديق أو الصديقة أو هذا العدو أو العدوة. ولكن حدث ذات مرة... إلا أن هذه حكاية أخرى.

لقد أمرت مديرية السيد لانديس – هاغارت بأن يتم نقله من دينديغول إلى «الحدود» مع إنذار بأن يتم ذلك خلال يومين اثنين، وقد رحل من دينديغول إلى موقع عمله الجديد، وهو يخسر المال في كل خطوة يخطوها. وقد اضطر إلى ترك السيدة لانديس – هاغارت في «لوكناو»، لتمكث مه بعض الأصدقاء هناك، وتشارك في حفلة

راقصة كبيرة ستقام في «تشتر مونزيل»، وأن تلحق به حين يكون قد جهز البيت الجديد وجعله مريحاً إلى حد ما. كانت لوكناو هي موقع عمل هاناسايد، وقد مكثت السيدة هاغارت أسبوعاً هناك. ذهب هاناسايد لاستقبالها. وحين وصل القطار، اكتشف ما كان يفكر فيه خلال الشهر الذي انقضى. كما أقلقه تصرفه غير الحكيم. لقد كان من شأن ذلك الأسبوع الذي تمت تمضيته في لوكناو، متضمناً رقصتين، وكمية غير محدودة من النزهات على الجياد، أن قام بتثبيت الأمور. وها هو هاناسايد يجد نفسه يدور في هذه الدائرة من التفكير: كان يعبد أليس تشيزاين، على الأقل كان قد سبق له وعبدها. وقد أعجب بالسيدة لانديس - هاغارت لأنها تشبه أليس تشيزاين. ولكن السيدة لانديس - هاغارت لم تكن تشبه أليس تشيزاين إطلاقاً، فهي أكثر جدارة منها بالعبادة ألف مرة. والآن فإن أليس تشيزاين «عروس رجل آخر»، وكذلك السيدة لانديس - هاغارت، كما كانت زوجة طيبة ومخلصة أيضاً. لذلك، فإنه هو، هاناسايد كان... وهنا أطلق على نفسه عدة أسماء قاسية صارمة، وتمنى لو كان حكيماً في البداية.

وسواء كانت السيدة لانديس - هاغارت تعرف أم لا تعرف بما كان يدور في ذهنه لهو أمر لا يعرفه سواها. لقد بدا عليه أنه مهتم تماماً بكل ما كان يتعلق بها، وذلك بالتمايز مع شبهها بأليس تشيزاين، وقد قال أمراً أو اثنين، لو كانت أليس تشيزاين ما تزال مخطوبة منه، ما كان ممكناً أن يُغفر له قوله ذاك إطلاقاً، حتى ولو على أساس التشابه. ولكن السيدة هاغارت تجاهلت الملاحظتين، وأنفقت وقتاً طويلاً وهي تجعل هاناسايد يرى كم كانت تجعله سعيداً ومرتاحاً بسبب شبهها الغريب بمحبوبته القديمة. تأوه هاناسايد وهو على سرج حصانه وقال: «أجل بالفعل»؛ ثم أشغل نفسه بالتحضيرات الخاصة بمغادرتها إلى

«الحدود»، وهو يشعر بأنه صغير جداً وفي منتهى البؤس.

جاء اليوم الأخير من إقامتها في لوكناو، وودعها هاناسايد في محطة القطار بعد أن رافقها إلى هناك. كانت ممتنة جداً للطفه والعناء الذي كابده، وابتسمت بسرور وتعاطف كشخص يعرف السبب الحقيقي الكامن خلف ذلك اللطف، ألا وهو أليس تشيزاين. وقد عامل هاناسايد الحمالين بفظاظة فيما يخص أمتعتها، وتدافع مع الأشخاص المتواجدين على رصيف المحطة، وتمنى لو أن السقف ينهار ويقتله.

وحين انطلق القطار ببطء، أطلت السيدة لانديس – هاغارت من النافذة لتودعه... قالت: «للمرة ثانية وداعاً (قالتها بالفرنسية) يا سيد هاناسايد. أنا سأزور الوطن في الربيع، وربما قد ألتقي بك في المدينة».

صافحها هاناسايد وقال بحماسة وهيام: «آمل من السماء ألا أرى وجهك مرة أخرى!»

وقد فهمته السيدة لانديس – هاغارت.

---

(10)-عربة يركبها عادة شخص واحد ويقوم رجل بجرها من خلفه، وهي وسيلة نقل كانت شائعة في الهند. (المترجم)

(11)-في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هناك ما يسمى Chevalier Servente ويطلق هذا الاسم على الرجل الشهم أو العاشق الذي يرافق امرأة متزوجة من رجل آخر. (المترجم)

(12)-هيكل الجسم البشري: كان يصنع من الخشب وله أطراف متحركة ويستخدمه الرسامون عادة. (المترجم)

١٥- مشافهة

هذه الحكاية يمكن تفسيرها من قبل أولئك الذين يعرفون كيف تُصنع الأرواح، وأين تنتهي حدود «الممكن». لقد عشت في هذه الهند فترة طويلة كافية لأعرف أنه من الأفضل ألا يعرف المرء أي شيء، وأنه لن يستطيع أن يكتب القصة إلا كما حدثت فحسب.

كان «دومويز» هو جراحنا «المدني» في «مريدكي»، وكنا نسميه «دورماوس» (الفأر النائم) لأنه كان رجلاً ممتلئ الجسم، ضئيل القامة وميالاً إلى النعاس. كان طبيباً جيداً، ولم يتشاجر قط مع أي شخص، ولا حتىً مع «نائب المفوض» خاصتنا الذي كان له سلوك قبطان سفينة شحن ولباقة لحصان. وقد تزوج من فتاة ممتلئة الجسم وميالة إلى النعاس شأنه هو تماماً. كان اسمها «الآنسة هيلاردايس» ابنة «Squash Hillardyce of the Berars» الذي تزوج من ابنة زعيمه بالخطأ. ولكن هذه حكاية أخرى.

شهر العسل في الهند نادراً ما يمتد لأكثر من أسبوع واحد؛ ولكن لا شيء يمكنه أن يعيق العروسين عن تمديده لسنتين أو ثلاث سنوات. الهند بلاد مبهجة للمتزوجين المتفاهمين الذين لا يحبون الاختلاط بالآخرين. إنهم قادرون على أن يعيشوا وحيدين تماماً ودون مقاطعة... كما فعل الزوجان دومويز. لقد اعتكف هذان الشخصان ضئيلا القامة العالم كله بعد الزواج، وكانا سعيدين جداً. وقد اضطرا طبعاً إلى دعوة بعض معارفهم إلى مآدب العشاء، ولكنهما لم يتخذا أي أصدقاء؛ ومضت الحياة في «الموقع» كعادتها ونسيهما الناس. ولكن كان البعض يقولون أحياناً إن الدكتور شخص طيب جداً ولكنه مملّ. إن جراحاً مدنياً لا يتشاجر أبداً أمر نادر، وقد نال الإعجاب بسبب ذلك.

قلة هم أولئك الذين يتحملون لعب دور روبنسون كروزو في أي مكان... وفي الهند فإن هذا يكاد يكون مستحيلاً، فنحن قلة في هذه الأرض ونتكل كثيراً على ما يقدمه واحدنا إلى الآخر من واجبات. كان دومويز على خطأ في اعتزاله العالم كله لسنة كاملة، وقد اكتشف خطأه حين انتشر وباء التيفوئيد في «الموقع» في عزّ فصل البرد، وقد أصيبت زوجته بالعدوى. كان رجلاً خجولاً ضئيل القامة، وقد تم تبديد خمسة أيام قبل أن يدرك أن السيدة ديمويز كانت تعاني من شيء أسوأ من مجرد حمى خفيفة، ومرت ثلاثة أيام قبل أن يتجرأ فينادي على «السيدة شوت»، زوجة المهندس، ويتحدث بخجل عن متاعبه. تعرف كل أسرة في الهند تقريباً أن الأطباء عاجزون تماماً أمام التيفوئيد. وكان لا بد من خوض المعركة التي جرت بين الموت والممرضات دقيقة بدقيقة ودرجة بدرجة. كادت السيدة شوت أن تصفع دومويز تجاه ما سماه بـ «تأخره الإجرامي»، وانطلقت على الفور لتعتني بالمرأة المسكينة. كان لدينا سبع حالات من الإصابة بالتيفوئيد في «الموقع» في ذلك الشتاء، وبما أن معدل الوفاة هو حوالي واحد من كل خمس حالات تقريباً، فقد شعرنا واثقين أننا سنخسر شخصاً ما. ولكن بذل الجميع أقصى جهودهم. سهرت النساء للعناية بالنساء، واهتم الرجال بالعازبين المرضى واعتنوا بهم، وقد تصارعنا مع حالات التيفوئيد لستة وخمسين يوماً، وخرجنا بهم من «وادي الظلال» منتصرين. ولكن في اللحظة التي ظننا فيها أن كل شيء قد انقضى، وكنا سنقيم حفلة رقص للاحتفال بالنصر، أصيبت السيدة دومويز ضئيلة الجسم بانتكاسة وماتت خلال أسبوع، وشارك سكان «الموقع» كلهم في الجنازة. انهار دومويز انهياراً كاملاً عند حافة القبر، وكان لا بد من حمله بعيداً.

بعد الوفاة، زحف دومويز إلى منزله ورفض أن يتعزى. كان يقوم بواجباته على أفضل نحو، ولكننا شعرنا جميعاً أنه يجب أن يذهب في إجازة، وقد قال له ذلك الرجال الآخرون العاملون معه. كان دومويز شديد الامتنان لهذا الاقتراح -كان ممتناً لأي شيء في تلك الأيام- وقد ذهب إلى «تشيني» في سياحة تتم مشياً على الأقدام. Walking-tour تبعد تشيني حوالي عشرين مسيرة عن سيملا، في قلب «الجبال»، والمشاهد الطبيعية هناك جيدة إن كنت تعاني من القلق والعناء. يمكنك هناك أن تمر عبر غابات كبيرة من شجر الصنوبر، تحت جروف صخرية كبيرة هادئة، وعبر تلال عشبية كبيرة وهادئة تتعاظم كثديي امرأة؛ والريح عبر العشب، والمطر بين أشجار الصنوبر يقولان: «اسكت - اسكت - اسكت». وهكذا أُرسل دومويز ضئيل الجسم إلى تشيني ليواسي أحزانه، مع كاميرا جيدة وبندقية. كما اصطحب معه حمالاً، لأن هذ الرجل كان الخادم المفضل لدى زوجته. وكان هذا متبطلاً ولصاً، ولكن دومويز أوكل إليه كل شيء.

في طريق عودته من تشيني، مرَ دومويز بـ «باغي»، عبر «المحمية الحرجية» الواقعة على أنف «جبل هوتّو». يقول بعض الرجال الذين سافروا كثيراً إن المسيرة من «كوتغار» إلى «باغي» واحدة من أجمل ما هو موجود في العالم. وهي تمر عبر غابة رطبة ومعتمة، وتنتهي فجأة في منحدر جبلي وصخور سوداء. إن الكوخ الحكومي الجبلي في باغي مكشوف أمام جميع الرياح وبارد إلى حد مرير. يذهب القليل من الناس إلى باغي. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل دومويز يذهب إلى هناك. وصل في السابعة مساء، ومضى حماله إلى منحدر الجبل نحو القرية ليجد عمالاً للمساعدة في مسيرة اليوم التالي. كانت الشمس قد غربت، وكانت رياح الليل قد بدأت تدندن بين الصخور.

اتكأ دومويز على درابزين الشرفة، وهو ينتظر حماله حتى يعود. عاد الرجل على الفور تقريباً بعد أن اختفى، وبسرعة جعلت دومويز يتخيل أنه ربما صادف دباً. كان يعدو بقوة وبقدر ما يستطيع صاعداً الجبل.

ولكن لم يكن هناك دب سبب له كل ذلك الذعر. ركض نحو الشرفة وسقط أرضاً، والدم ينفر من أنفه ووجهه بلون الحديد الرمادي. ثم قال بصوت راعش: «لقد رأيت الميمصاحب! لقد رأيت الميمصاحب!»

سأله دومويز: «أين؟»

«هناك في الأسفل، وكانت تمشي على الدرب نحو القرية. كانت ترتدي ثوباً أزرق، وقد أزالت منديل قبعتها وقالت: «يا رام داس، أوصل سلامي إلى الصاحب، وقل له إني سأقابله في (نوديا) الشهر القادم». ثم هربتُ بعيداً عنها لأني كنت خائفاً».

لا أعرف ما الذي قاله دومويز أو فعله. يصرح رام داس بأنه لم يقل أي شيء، بل أنه ظل يذرع الشرفة جيئة وذهاباً طوال تلك الليلة الباردة، منتظراً أن تصعد الميمصاحب الجبل، ويروح يمدّ ذراعيه في العتمة كرجل مجنون. ولكن الميمصاحب لم تأت؛ وفي اليوم التالي، ذهب إلى سيملا وهو يستجوب الحمال في كل ساعة.

كل ما استطاع رام داس أن يقوله هو أنه قابل السيدة دومويز، وأنها رفعت منديلها وأبلغته تلك الرسالة التي كررها بصدق لدومويز. وقد تقيّد رام داس بهذه الإفادة. وهو لم يكن يدري أين تقع «نوديا» تلك، ولم يكن لديه أي أصدقاء في «نوديا»، ولن يذهب إلى «نوديا» بكل تأكيد، حتى لو ضوعف له أجره.

«نوديا» هذه في البنغال، وليس لها أي علاقة إطلاقاً بطبيب يمارس عمله في البنجاب. وهي تقع على مسافة ألف ومائتي ميل من

«مريدكي».

عبر دومويز سيملا دون أن يتوقف فيها، وعاد إلى مريدكي ليستلم المسؤولية من الشخص الذي كان ينوب عنه في عمله خلال جولته السياحية. كانت هناك بعض الحسابات الخاصة بالمستوصف ويجب أن يتم تفسيرها، وبعض الأوامر الجديدة من «كبير الجراحين» مما يتوجب أخذها في الاعتبار، وعلى أي حال، استغرق الاستلام عمل يوم كامل. في المساء، حكى دومويز للشخص الذي سينوب عنه في عمله، وكان هذا صديقاً قديماً له من أيام العزوبية، ما الذي جرى في باغي؛ وقال الرجل إن رام داس قد يكون اختار «توتيكورين» وهو يمكث فيها.

في تلك اللحظة وصلت رسالة بالتلغراف من سيملا تحمل أمراً إلى دومويز بألا يستلم العمل في مريدكي، بل أن يذهب على الفور إلى «نوديا» في مهمة خاصة. كان وباء الكوليرا قد انتشر بشكل كريه في «نوديا»، ولم يكن لدى حكومة البنغال ما يكفي من الأطباء، كالعادة، وكان عليها أن تستعير طبيباً من البنجاب.

رمى دومويز بالبرقية عبر المنضدة وقال: «حسنا؟»

لم يقل الطبيب الآخر شيئاً. كان هذا كل ما استطاع قوله.

ثم تذكر أن دومويز قد مرّ عبر سيملا في طريقه من باغي؛ وربما يكون قد سمع، على الأرجح، أول الأخبار التي لمحت إلى نقله الوشيك إلى البنغال.

حاول أن يصوغ بكلماته السؤال والشك المتضمن فيه، ولكن دومويز أوقفه عندما قال: «لو أني رغبت في ذلك، لما كنت لأعود أبداً من تشيني. كنت أمارس الصيد هناك. أتمنى أن أعيش، فأنا لديّ أمور أقوم

بها... ولكني لن أكون آسفاً».

طأطأ الرجل الآخر رأسه، وراح يساعد دومويز في الغسق على توضيب حقائبه المفتوحة. دخل رام داس وهو يحمل المصابيح.

سأله: «إلى أين سيذهب الصاحب؟»

قال دومويز بصوت خفيض: «إلى نوديا».

تشبث رام داس بركبتي دومويز وحذائه وتوسل إليه ألا يفعل. بكى رام داس وعوى حتى تم طرده من الغرفة. ثم وضب جميع حاجياته وعاد ليطلب رسالة توصية. إنه لن يذهب إلى «نوديا» ليرى الصاحب يموت، وربما سيموت هو أيضاً.

وهكذا منح دومويز الرجل أجوره ومضى إلى «نوديا» وحيداً، والطبيب الآخر يودعه وكأن دومويز شخص محكوم بالإعدام.

بعد أحد عشر يوماً لحق بالميمصاحب، وكان على حكومة البنغال أن تستعير طبيباً جديداً حتى تستطيع مكافحة الوباء في نوديا. وقد كانت جثة الطبيب الذي تمت استعارته أولاً مسجاة في الكوخ الحكومي الجبلي في تشوادانغا(13).

---

(13)-تشوادانغا: منطقة جبلية في غرب البنغال. (المترجم)


مكتبة نوبل
١٩٠٧
رادیارد كيبلينغ
مختارات من
حكايات بسيطة
من الجبال
ترجمة: توفيق الأسدي